تجليات النكبة و المقاومة

في الفكر و الأدب العربي المعاصر



تجليات النكبة و المقاومة
في الفكر و الأدب العربي المعاصر

أ.د.حسين جمعة

اسم الكتاب: تجليات النكبة و المقاومة في الفكر و الأدب العربي المعاصر.

المؤلف: أ.د .حسين جمعة.

كمية الطباعة:١٠٠٠.

سنة الطباعة:٢٠١٣.

الترقيم الدولي: ٧- ٠٢٩- ٢٢- ٩٩٣٣- ٩٧٨ (ISBN)

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣- ٠٠٩٦٣١١٥٦٣٧٠٦٠

فاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

www. darrislan. com

مقدمة الطبعة الثانية

صدر هذا الكتاب في طبعته الأولى في سلسلة كتاب الجيب (الثقافة للجميع) رقم (٦٣) التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب... مع مجلة (الموقف الأدبي)... وقَدْ تركز في إبراز نكبة (١٩٤٨م) وما حدث قبلها وبعدها للشخصية الفلسطينية... ولمّا كان ذلك كذلك وقف الكتاب عند جذور النكبة وإرهاصاتها؛ ثم ركز الحديث في السياسة الأوربية التي أقامت مشاريعها الاستعمارية متكاملة مع المشروع الصهيوني الذي برزت ملامحه في الاستيلاء على فلسطين بعد مؤتمر (بازل) في (سويسرا) عام (١٨٩٧م) الذي صاغ مفاهيم عدوانية وعنصرية استمدها من التوراة والتلمود وبروتوكولات حكماء صهيون... لتحقيق مآرب قادته الاستيطانية في فلسطين واقتلاع أهلها منها...

ومن ثم كانت مادة الكتاب مادة توثيقية تاريخية تجمع بين المنهج التاريخي والواقعي... وهي المادة التي استدعت مواقف الأدباء العرب ومثقفيهم في تداخل موضوعي بين المبدع وقضاياه الوطنية والقومية والإنسانية. أي إن الكتاب عند توقف جوهر الحدث التاريخي وحقيقة عبث الصهاينة بهذا الجوهر؛ وسعيهم المتواصل إلى تزويره، وتشويه ملامحه، وتحويله عن حقيقته إلى تصورات غائمة غامضة تلائم أوهام الغيبيات التي يعتقدون بها... ما يدفعنا إلى إحياء هذا الحدث بصورته الحقيقية الناصعة، بعد أن صار جزءاً من الذاكرة الوطنية والقومية... إذ قام المبدعون بتحويل هذه الذاكرة إلى شعلة وقّادة، ومنهج لطريق التحرر من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني العنصري.. فكان الكتاب يوثق كل حدث تاريخي واجتماعي وفكري في

صميم الأدب الذي استطاع أن يعبر عن مأساة الشعب العربي الفلسطيني، وأن يحلل الواقع الذي يعيش فيه، وأن يستشرف المستقبل بعد أن تحوَّل الحُلُم إلى طريق نضالي يوحي بإشارات انتصار الدم على السيف، واللحم على آلة الفتك الصهيونية... كان الأدب ملتزماً بالتشبث بالأرض؛ وإبراز الذاكرة الوطنية المقاومة لكل أشكال الاحتلال والقهر والظلم... في الوقت الذي نهض في الحفاظ على الهوية والثقافة والتراث...

وإذا كانت هناك عوامل تحريضية أخرى لإصدار هذا الكتاب فإن عدداً غير قليل من الزملاء رأى أن يصدر الكتاب من جديد في طبعة مستقلة؛ بعد أن نفدت الطبعة الأولى...

ومن ثم لقيت رغبة الزملاء تجاوباً لدينا . وما كنا لنهملها . وعدنا الى الكتاب ونظرنا فيه، فالتمسنا بعض التعديلات أو الإضافات التي عززت الرؤية التي بُني عليها، في الوقت الذي أظهرنا القيمة الفنية لعدد من النصوص...

وإذا كانت مادة الكتاب تتميز بواقعية تاريخية فإنها مادة ترفل بثوب شفاف وجذاب تعبّر عن شاعرية الواقع والتاريخ وفق إيحاء نسغها الفني المشغوف بالجمال... الموازي للرغبة الذاتية ما جعله يجمع بين الإمتاع والفائدة؛ وهما غاية علم الجمال...

حسين جمعة

دمشق في (١٥/٥/٢٠١٣م)

مقدمة

يتناول هذا الكتاب نكبة الشعب الفلسطيني عام (١٩٤٨م) في ضوء سياقاتها التاريخية والدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية، ...؛ وفي إطار الجمع بين المذهب الطبيعي والواقعي والمشفوع بالشواهد الأدبية، أي إنه يبحث في الوظيفة (المضمون والهدف) لا في الطبيعة (الشكل والجوانب الجمالية أو الفنية)؛ وإن ألمَّ بهذه الجوانب حيناً. ونحن في ذلك كله نذهب ما ذهب إليه (هيجل) حين قال: "كل واقعي عقلي، كل عقلي واقعي؛ فلم لا نمتلك العقل لنمتلك الواقع؟!". ولهذا فإن العاقل المدقق في أسباب النكبة ونتائجها يتضح له أن النكبة ليست مجرد حدث تاريخي عابر في الزمان والمكان وإنما هي بداية تحقيق مشروع استعماري استيطاني عنصري عالمي وضعت مخططاته في الغرب الأوربي في صميم نشأة الحركة الصهيونية؛ وأكاذيبها حول (أرض الميعاد)، وفي إطار الاستعمار الأوروبي للوطن العربي وما يرتبط به. فأكاذيب أرض الميعاد لم تعد تنطلي على أحد وإن بُنيت على أوهام دينية زعم الصهاينة وجودها في كتبهم المقدسة كالتلمود والتوراة؛ وبقية التعاليم الدينية الأخرى، إذ شرع الصهاينة - مثلاً - يرددون في عيد الفصح العبراني عبارة (العام القادم في أورشليم)، ثم جعلوها مزموراً في صلواتهم مع شيء من التغيير وكأنها آية ملزمة (إن نسيتك يا أورشليم فلينسني لساني في حلقي). وهذا كله فَرَض على الباحث أن يعود إلى مكونات المشروع الصهيوني أسباباً ونتائج، والوقوف عند جذوره الأولى، وما آل إليه من نكبات أولها نكبة (١٩٤٨م).. ولذا نرى أن الهدف من هذا الكتاب تثبيت الوعي بمضمون النكبة بوصفه الحدث الأخطر في تاريخ الأمة، وبيان أثر الأدب في تمكين الوعي بالوجود والهوية والمخزون الفكري الثقافي قبل حدوث هذه القضايا الثلاث؛ (الوجود والهوية...) وبعدها؛ وبناء عليه فالكتاب يبرز الوجه القذر للغزو الاستيطاني الصهيوني؛ واغتصابه للأرض؛ ومحاولاته الهادفة إلى محو التاريخ والهوية العربية الفلسطينية...

ونرى أنه يختلف اختلافاً جذرياً عن كتابنا السابق (ملامح في الأدب المقاوم؛ فلسطين أنموذجاً) الذي وضع لبيان موقف الأدباء من قضايا التنمية والتحرر الوطني ومواجهة المحتل الصهيوني الاستيطاني العنصري، وبيان قيمة ثقافة المقاومة منذ بدء القضية الفلسطينية حتى العدوان الصهيوني على غزة عام (٢٠٠٨م).. ومن ثم توقف عند تجليات الأدب المقاوم في دفاعه عن الذات والتشبث بالهوية والأرض وحق تقرير المصير...

أما كتابنا هذا فهو ـ كما ذكرناه في كلماتنا السابقة ـ يتركز حول النكبة والدسائس التي اصطنعتها أوربا عامة وبريطانيا خاصة لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، والمخططات التي اصطنعت لتحقيق هذا الأمر بمساعدة الحركة الصهيونية العالمية التي تجلّى ظهورها على يد الصحفي النمساوي اليهودي (تيودور هرتزل ١٨٦٠ ـ ١٩٠٤م) قبل إصدار كتابه (دولة اليهود) وبعده، وبعد مؤتمر (بازل) بسويسرا (١٨٩٧م)... الذي نظم عمل الحركة الصهيونية لترحيل اليهود خارج أوربا...

ولما أثبت أن هجرة اليهود إلى فلسطين مصلحة أوربية أوضح أن نكبة (١٩٤٨م) تعدُّ حدثاً تاريخياً فاصلاً في حياة الشعب الفلسطيني والشعب العربي حدثاً فرض نفسه على الدارسين شرقاً وغرباً ولقي عنايتهم لكشف أسراره...

ولهذا تناولنا الكتابة في هذا الموضوع الجلل تناولاً تاريخياً وفكرياً وجعلنا الأدب بشعره ونثره يرافقه ويعبر عنه بوصفه شاهداً حيّاً على جريمة العصر التي ارتكبتها الدوائر الغربية /الصهيونية، ثم الغربية/ الأمريكية بحق شعب أعزل لا حول له ولا قوة، ومازالت تمارس هذا العدوان الظالم عليه.

ولعل ذلك كله دفع الشعب الفلسطيني إلى تحويل ذكرى النكبة إلى حالة نهوض وتجدد ... وهذا ما أوحى إلينا بعنوان الكتاب؛ وهو (من النكبة إلى المقاومة والتجدد)، فمن صميم الموت تولد الحياة؛ ولا بد لطائر الفينيق أن يخفق جناحاه ليخترق عنان السماء... ولا مراء لدينا فيما أنتجته النكبة من مواقف وأفكار؛ فهي التي أعادت صياغة الشخصية الفلسطينية صياغة متمردة، وأججت ثورتها للتمسك بالأرض والعودة إلى فلسطين ـ كامل

فلسطين ـ من البحر إلى النهر؛ وما المنفى أو اللجوء إلا حالة مؤقتة. فالفلسطيني لن يضيع ـ بعد اليوم ـ في البلدان والدروب، والخامس عشر من أيار لم يعد مجرد ذكرى للنكبة بل غدا رمزاً دائم الخضرة يعادل شجرة الزيتون؛ ويفوح برائحة الخبز والزيت والوطن المزنَّر بالخواطر المتجددة ما إن تتلاشى حكاية حتى تولد رؤى ضوئية تنشر بهاءها على طريق الحرية والعودة. ومن ثم فشهر أيار لم يعد لدى الفلسطيني خاصة والعربي عامة زمناً فيزيائياً طبيعياً وإنما أضحى ولادة لابتسام الحياة بكل ما فيها من بياض إنساني يزيل من جنباتها الإرهاب الصهيوني الأسود؛ ويتغلب على عتمة الجراح النازفة، ما يؤكد أن أيار غدا المحرقة التي ستحرق من علق صدأ الفكر الصهيوني بعقله، فأخذت تنبعث منه رائحة صَديد العنصرية الحاقدة على أبناء الإنسان بوصفهم ـ لديه ـ أغياراً لا ينتمون إلى شعب الله المختار... فليالي شهر النكبة أخذت تسقي القمر من بحر يافا وحيفا وهو يغطُّ فيه هادئاً مطمئناً وقد برئ من آلامه وأسقامه التي تفنن الصهاينة باستحضارها من عفن أفكارهم المريضة، ووحشية جرائمهم التي ارتكبوها وهم من أتقن صناعة الكذب والأوهام لتشويه حقيقة النكبة واقتلاعها من ذاكرة الشعب الفلسطيني..

وبناء على ما سبق فسيحاول هذا الكتاب معالجة عدد من الموضوعات التي تلتصق بالنكبة معتمداً إبراز مفهومها، وما يرتبط به من مصطلحات وجذور؛ وإرهاصات، والأحداث التي وقعت إبانها وبعدها... عاقداً العزيمة على الوقوف عند مرحلة البحث عن الذات، ثم وعي مسؤول لما يجري بين ظهراني الأمة من أحداث كبرى وصولاً إلى مطلع الألفية الثالثة بوصفها مرحلة التحدي العظمى للتخلص من رجس الصهيونية العالمية...

وهو يتناول كل ذلك في إطار المنهج الوصفي المستند إلى التدرج التاريخي لأحداث النكبة وصورتها المعانقة للإبداع الأدبي الفلسطيني وهذا ما استوجب على الباحث أن يلحق بالكتاب ملحقين اثنين الأول للنثر، واختيار رواية (عائد إلى حيفا) لغسان كنفاني أنموذجاً لدراسة تطبيقية تحليلية للمصادمة الفكرية التاريخية الأدبية بين العرب من جهة والصهاينة من جهة

ثانية؛ وبوصف هذه الرواية منتجاً لحقيقة النكبة... أما الملحق الثاني فهو لنماذج شعرية تعبر عن مراحل النكبة التي تناولها الكتاب بالقراءة والتحليل واعتمدنا في اختيارها على ما ورد في ديوان (العودة) و (أدب المقاومة في فلسطين المحتلة)...

إن معيار دقة الفعل النقدي يحدونا إلى تنسم عالم الأرواح النقية في النصوص الأدبية؛ واستخلاص ماهية الفكر الموضوعي الجاد، وتبني مبدأ الحياد النزيه لرؤية الحقيقة الساطعة في عالم يضج بالنفاق والخداع والكذب والتضليل والتشويه...

وهذا كله ما نتوخى بيانه وإيضاحه، انطلاقاً من إماطة اللثام عما انتهت إليه سياقات النكبة حتى عصرنا الذي نعيش فيه.

والله ولي التوفيق

دمشق ـ ٢٠١٢/٥/١٥

حسين جمعة

مدخل

يحاول هذا الكتاب بيان الجوهر الشامل للنكبة الفلسطينية بوصفها قضية اجتماعية تاريخية نضالية تحررية وطنياً وقومياً وإنسانياً. وهذا كله يؤكد بما لا يقبل الشك أن أحداث النكبة التاريخية هي التي أنتجت مأساة دائمة ومروعة لشعب لم يرتكب خطأ بحق أولئك الذين صنعوا الإرهاب ومارسوا الجريمة البشعة التي أساءت إلى المبادئ الإنسانية والقيم الخلقية... فلا غرو بعد هذا كله أن تصبح جزءاً من الثقافة الكونية، وبخاصة تلك التي ترتبط بثقافة التحرر، والنهوض، أياً كانت المعاناة المؤلمة في النفس...

وفي ضوء هذا التصور نرى أن مفهوم النكبة ـ بما آل إليه من دفاع عن الذات ومقاومة المحتل الغاصب ـ أنتج ثقافة خاصة به، بما فيها الأدب الذي أطلق عليه أدب النكبة؛ وهو ـ بالضرورة ـ ينتمي إلى أدب الطباع السامية بكل سماته وأغراضه وموضوعاته رثاء وهجاءً وفخراً ووصفاً للبطولات والأبطال... في الوقت الذي يعد فعلاً توثيقياً تاريخياً لأعظم حدث في تاريخ الأمة. وقد استطاع هذا الحدث إبراز الشخصية الفلسطينية بكل ملامحها كونها شخصية حيَّة واقعية وثابتة؛ ممتدة ومتجددة في كل مراحلها انطلاقاً من تجذرها التاريخي والحضاري، ووصولاً إلى المقاومة الوطنية والقومية التي سجلها الشعب الفلسطيني في سجلات الشرف والخلود، سواء قبل تاريخ النكبة أم بعدها؛ وسواء اختار هذا الشعب المقاومة الإيجابية؛ بالمواجهة والكفاح المسلح وانتفاضة الحجارة الأولى عام (١٩٨٧م) أم المقاومة السلبية ابتداءً بالإضراب؛ وانتهاء بمسيرات العودة وكسر حاجز الحصار عن شعبنا في غزة... وإذا كانت النكبة قد أبدعت ثقافة وطنية مقاومة؛ فلا يعني أنها ثقافة منعزلة أو عنصرية، وإنما هي ثقافة تنتصر للقيم البطولية؛ التي تتكامل مع القيم الأخلاقية... ولهذا صمدت؛ ثم نهضت تقاوم محتلاً صهيونياً

شرساً قاتلاً للحياة وغاصباً للأرض، ومحطماً للهوية... وقد أكد الأدب المقاوم ذلك كله بوصفه يمثل ذاكرة الأمة الوهَّاجة؛ والمدافع عن وجودها وكرامتها ضد الإرهاب الصهيوني المتوحش... ثم وقف الأدب بكل عنفوانه كاشفاً المحاولات الضالة المضلّة للصهاينة الذي يعمدون إلى تزوير التاريخ والثقافة... وفق إرادة إلغائية تهدف إلى اغتيال كل ما ينتمي إلى فلسطين وإلى العروبة[1].

وكان الدكتور المرحوم إحسان عباس قد أجاد الحديث عن مراحل تلك النكبة في بحثه القيم (الشعر في فلسطين حتى العام ١٩٦٧م) [2]، وقبله ألَّفَ الشهيد الأديب الروائي غسان كنفاني أول كتاب أسماه (أدب المقاومة في فلسطين المحتلة) عام (١٩٦٦م) دارت فصوله على الشعر المقاوم بين (١٩٤٨ - ١٩٦٦م)، وتناوله بوصفه ظاهرة نفسية اجتماعية، وثقافية أدبية تقوم بالدفاع عن الوجود والذات وتحارب العدو الصهيوني المسلح بكل الأدوات الفتاكة، وغير المشروعة... وكذلك فعل بعده الناقد المصري غالي شكري في كتابه (أدب المقاومة) عام (١٩٧٠م) وحسني محمود في كتابه (شعر المقاومة الفلسطينية) بأربعة أجزاء، وقد صدر في مطلع الثمانينيات، ويوسف الخطيب في كتابه (ديوان الوطن المحتل) عام (١٩٦٨م)، ثم (أدب الحرب) لحنا مينه ونجاح العطار عام (١٩٧٦م) الذي خص (أدب المقاومة الفلسطيني) بعنايته وقدّم نماذج منه[3]،و(دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي) لحسين مروة عام

---

[1] انظر كتابنا (ملامح في الأدب المقاوم؛ فلسطين أنموذجاً) ص ١٠٤ وما بعدها، فقد تناول ذلك كله.

[2] انظر الموسوعة الفلسطينية ٥/٤ -٢٧؛ وفيه جسَّد وعياً عالياً للذات الوطنية..

[3] انظر أدب الحرب ٢١٩ - ٢٥٩ - ثم النماذج ٢٧١ - ٢٩٢. وقد عرضنا لهذا كله في ملامح في الأدب المقاوم.

(١٩٨٦م). وقد ركز ـ أيضاً ـ في المؤثرات التي أحاطت بأدب الأرض المحتلة المقاوم، ولم يتعرض له جمالياً أو فنياً، وهو ما فعله ـ على نحو ما ـ طلعت سقيرق في كتابه (الشعر الفلسطيني المقاوم في جيله الثاني) عام ١٩٩٣م ولا سيما حين تحدث عن الشخصية الفلسطينية وملامحها في واقعيتها وثباتها وتجددها... ومما قاله في هذا الشأن: "عند دراسة الشخصية الفلسطينية لا بد من القول: إنها شخصية تطلب الحياة والفرح في كل وقت. وطبيعي أن تكون مثل هذه الشخصية مسكونة بطلب الهدوء والسكينة والسلام من خلال سيادة العدل والحق. ولعل الشخصية الفلسطينية من أكثر الشخصيات الإنسانية وأشدها طلباً للسلام بعد أن ذاقت مُرَّ العذاب والآلام والموت طوال السنوات الماضية"[١] وشبيه من هذا كله ما قام به عز الدين المناصرة في كتابه (هامش النص الشعري) الصادر سنة (٢٠٠٢م) حين عرض لنصوص مقاومة وفق دلالتها الزمانية [٢]. ولعل من آخر المؤلفات التي أرخت لأحداث النكبة في الأدب العربي كي تظل ذاكرة الأجيال متيقظة كتاب (أدب النكبة في التراث العربي) لمحمد حمدان، وأوقفه على نكبات الأمة التاريخية في العصر العباسي، على حين أوقف الدكتور إبراهيم جابر كتابه (جرح النكبة) على المأساة الفلسطينية. ويتألف من ثلاثة أجزاء تسجل مئات المجازر التي أحدثت في الشعب الفلسطيني مأساة كبرى تشيب لها الولدان[٣]. وسبقهما إلى ذلك الدكتور عبد الرحمن ياغي في كتابه (حياة الأدب الفلسطيني من أول النهضة حتى النكبة) ـ منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ١٩٦٨.

---

[١] الشعر الفلسطيني المقاوم ٤٨ وانظر فيه الفصل كاملاً ٤١ ـ ٦٦.

[٢] انظر ذلك كله في (شعر المقاومة في النقد الأدبي في العالم العربي) ـ د. عادل الأسطة وانظر مؤلفات الدكتور عادل في كتابنا (ملامح في الأدب المقاوم ص ـ ٢٢ ـ حاشية ١).

[٣] انظر مجلة العودة ـ ص ٤٤ ـ العدد ٥٦.

وحينما نتمثل بكل هؤلاء وغيرهم[1] جامعين بين التأريخ والتوثيق فإننا نقدم وظيفة استكمال ما بدؤوه، لافتين الانتباه إلى أن التمييز بين دلالة الكوارث ومآسيها يكاد يكون متماثلاً بين القدماء والمحدثين وإن اختلفت طبيعة الأحداث، أو طرائق التعبير على نحو ما[2]. وبالمقابل حين نشير إلى أدب المقاومة قبل نكبة (١٩٤٨م) وبعدها لا يجوز أن نغفل الإشارة إلى الأدب الصهيوني منذ تلك النكبة، فقد سعى جاهداً إلى إبراز الأفكار الصهيونية التي تبنتها الحركة الصهيونية وقادتها، وفي طليعتها ما يتعلق بالأساطير المزعومة حول (الهيكل) و (أرض الميعاد) و (محرقة الهولوكوست) واستدرار شفقة العالم على الشعب اليهودي للخلاص من جحيم القهر والعزلة والتشتت ولم يتورع الصهاينة وأدباؤهم عن تصوير العالم بأنه يمارس عداء سافراً للسامية ولليهودي من دون أسباب علمية أو موضوعية... فالأدب الصهيوني منذ عام (١٩٤٨م) ـ وكل ما يرتبط به من دراسات ونقد ـ وضع نفسه في خدمة أهداف الصهيونية لقلب الحقائق وترويج الفكر الصهيوني العنصري الاستيطاني في صميم مفهوم الشرق الأوسط الذي صممه دهاقنة السياسة الأوربية والصهيونية...

وحينما كان يلتزم بذلك وبغيره كان يصمّم على تشويه صورة العربي عامة والفلسطيني خاصة فيرسم له صورة القاتل الإرهابي، المتخلف الجاهل؛ الذي تملكته نزعة الشهوة الجنسية لا يفرق بين امرأة وأخرى؛ كما تملكته شهوة المال والسلطة، ما يجعله.... والعرب وحوش وحشرات وهَوَام ضارة لا بد من قتلها والتخلص من أذاها وشرورها؛ إذ قال الحاخام اليهودي الصهيوني

---

[1] انظر الموسوعة العربية ٦١٤/٣ ـ ٦٢٨ ـ على سبيل المثال وانظر فيه المذكرات والسير الذاتية الفلسطينية ٨٢٧/٣ ـ ٩٠٠.

[2] انظر أدب النكبة في التراث العربي (١٧ ـ ٢١).

المتطرف (عوفاديا يوسف) ـ أو عبادة يوسف) في كتابه (أفاعٍ رقطاء) يصف العرب "بأنهم أولاد الأفاعي، وإن الله ندم لأنه خلقهم، ومن ثم يجب قتلهم...". أما الشاعرة الصهيونية (دوريت مارتون) فقد وصفتهم في قصيدتها (لا أشجار) بأنهم (أفاعي هذا الزمان داخل بيتها..." [1]..ومن ثم سنتناول مفهوم النكبة ـ أولاً ـ بوصف المفهوم مفتاحاً لفهم الجوهر الذي نبني عليه دلالات النكبة... وبوصفه منطلقاً إلى فهم جذور النكبة وما نتج عنها من مراحل تجسّد أُسَّ الكتاب ثانياً.

مفهوم النكبة:

النكبة: مصطلح يعني ـ لغوياً ـ المصيبة أو الكارثة؛ وحوادث الدهر، [2] **و ـ سياسياً ـ المأساة الإنسانية الفلسطينية تشريداً وتهجيراً، واقتلاعاً من الأرض وقتلاً لأبنائها وإرهاباً لهم؛ اعتقالاً وسجناً؛ وهدماً وتدميراً للبنى التحتية، وللممتلكات والمقدسات وغيرها**... فضلاً عن تخريب بنية المجتمع الفلسطيني سياسياً واجتماعياً وثقافياً واقتصادياً بسبب الحركة الصهيونية التي احتضنها الغرب منذ أن تبنى فكرة إنشاء (وطن قومي لليهود) في فلسطين.وفق العقلية المجرمة للحركة الصهيونية المستمدة من تعاليم التوراة المزيفة والداعية إلى قتل الفلسطيني في صورة نمطية إرهابية عجيبة[3]. "فالنصوص الدينية التوراتية تبدي اهتماماً عميقاً بمسألة القتل، قتل البشر، دون تمييز. وثمة عدة شواهد في كتاب التوراة تؤكد هذه المسألة، وتُدعم بشفاعة وتشجيع من (يهوه) الإله القومي لليهود، والذي لا وجود له خارج أسفار التوراة وشواهده التي تقوي الجانب العدواني الإجرامي؛ وهو الجانب

---

[1] انظر المقاومة؛ قراءة في التاريخ والواقع والآفاق ٧٨ ـ ٧٩ و ١٣٢ ـ ١٣٤.

[2] لسان العرب (نكب).

[3] انظر مجلة فكر ـ ص ١٢ ـ العدد (١٠٤).

الذي يستقي الكيان الإرهابي الإسرائيلي أفكاره منه؛ فنقرأ في التوراة (عدد ٣١ : ١٧ ـ والآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، واقتلوا أيضاً كل امرأة ضاجعت رجلاً)؛ (تثنية ٢٠ : ١٦ ـ أما مدن الشعوب التي يهبها لكم إلهكم يهوه ميراثاً فلا تستبقوا منها نسمة حية... ١٧ : بل دمروها عن بكرة أبيها)، (يشوع ٦ : ٢١ ـ ودمروا المدينة كرمى ليهوه، واقضوا بحد السيف على كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ، حتى البقر والغنم والحمير)، (صموئيل الأول ١٥ : ٣ ـ فاذهب الآن وهاجم العماليق، واقض على كل ما لهم. لا تعفُ عن أحد منهم، بل اقتلهم جميعاً رجالاً ونساء وأطفالاً ورُضَّعاً، بقراً وغنماً، جمالاً وحميراً...)[1] وفي ضوء هذه النصوص ـ وغيرها كثير ـ يُدرك كل إنسان مرجعية الإرهاب والقتل النموذجي الوحشي للصهاينة؛ وهي المرجعية التي أحدثت نكبة (١٩٤٨م) بكل صورها الفتاكة... أما الفلسطيني المقهور في أرضه، أو المقتلع منها وفي ديار اللجوء فقد شرع يعالج مأساته بأساليب شتى نظرياً وعملياً... وتبنى جملة من المفاهيم والطرائف؛ فاختار المواجهة والكفاح المسلح، والتضحية؛ وتمسك الفدائي، للدفاع عن الذات والوجود والأرض والهوية، وصار مصطلح (الفدائي) شائعاً بين المناضلين واقترن بمصطلح (العمل الفدائي)... وكلما هدأ النضال التحرري برز بأشكال جديدة كالمظاهرات والانتفاضات فولد مصطلح (الانتفاضة)... وتعد المصطلحات الثلاثة مصطلحات مرتبطة بالقضية الفلسطينية سيرورة وصيرورة في أزمنتها الممتدة والمتصلة؛ وقد دخلت في الأدبيات العالمية، والمفاهيم الدولية وفق دلالتها الأصيلة المرتبطة بالمقاومة المشروعة التي أقرتها الأنظمة الدولية ومواثيق الأمم المتحدة، وشرعة حقوق الإنسان التي أعطت الأفراد والجماعات الحق في مقاومة كل محتل يغتصب الأرض، وينتهك

---

[1] انظر المرجع السابق ١٨ وما بعدها.

سيادة الأوطان؛ ويستخدم الإرهاب للسيطرة على الشعوب وإكراهها على النزوح من ديارها... أما مصطلح (النكسة) فهو مصطلح سياسي ناتج ـ أيضاً ـ عن القضية الفلسطينية، ولكنه يتسع ـ سياسياً ـ ليرتبط بكل الأراضي العربية المحتلة في (١٩٦٧/٦/٥م)[١]. أما مصطلحات (المقاومة) و (الجهاد) و (الكفاح المسلح) فهي متماثلة في الدلالة ـ على نحو ما ـ. وتعود إلى تواريخ قديمة... وقد استخدمت لدى الشعب العربي وغيره[٢]؛ وإن رأى بعض الدارسين أن مصطلح المقاومة ارتبط بمقاومة النازية خلال الحرب العالمية الثانية وبالمقاومة الفرنسية خاصة[٣].

وأياً كانت الوسائل المتبعة لتنفيذ مضمون المصطلحات الثلاثة فهي أدوات مشروعة؛ بناء على مشروعية الأصل... فالمقاومة أو ما ناظرها من المفاهيم حق مشروع يقوم به المرء أو الدولة أو الشعوب ضد الاحتلال والإرهاب والأذى[٤]... وكلّما ازداد إرهاب المحتل الغازي[٥] وتوحشه كان لزاماً على الشعوب أن تدافع عن نفسها وأوطانها بكل ما تملك من قوة واستعداد حتى تحقق حريتها، وتعيد إلى تلك الأوطان سيادتها.

ولعل الباحث المنصف في مثل هذه المجالات يرى أن النكبة أخطر حدث مرّ في تاريخ العرب الحديث على الرغم من أهمية الأحداث الأخرى؛ لأن آثار الإرهاب البريطاني والصهيوني وصلت إلى مرتبة من القبح لم تبلغها آثار محتل آخر، وهي آثار لم تخص الشعب الفلسطيني بآثارها القاتلة، قتلاً وتهجيراً

---

(١) انظر ملامح في الأدب المقاوم ـ ص ١٧ ـ ٢١ (مفاهيم النكبة والنكسة والأزمة).

(٢) انظر كتابنا (المقاومة) ٢١ ـ ٣٠ و ٥١ ـ ٥٢ و ٥٦ وإسرائيليات ٢٧ ـ ٣٠.

(٣) انظر "إسرائيليات ـ ص ٢٦ ـ ٢٨.

(٤) انظر كتابنا (المقاومة: قراءة في التاريخ والواقع والآفاق) ٥١ وما بعدها.

(٥) انظر ـ مثلاً ـ المرجع السابق ـ ص٩٤- ٨٩.

ولجوءاً، ولاسيما أن أغلب هذا الشعب صار في أرض الشتات والمنفى وإنما تجاوزت هذه الآثار والنتائج إلى الوطن العربي برمته ثم المنطقة وباقي بلاد العالم... فالنكبة ما زالت تؤرق المجتمع الدولي بالحديث عن حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني وإقامة دولته المستقلة على كامل الأرض من البحر إلى النهر،وعاصمتها القدس. وهي مرتبطة بمسألة اللاجئين وحق العودة والتعويض... فهناك من ينكر هذه الحقوق برمتها، ويكيد لكل من يدعو إليها أو يدعمها، حتى آلت أمور حلّ القضية الفلسطينية إلى التعقيد ولم يظهر لها في الأفق المنظور أي حل، ثم تضاربت الآراء في ذلك، أياً كانت الطروحات للحل في إقامة دولتين؛ أم في إنشاء وطن بديل للفلسطينيين في الأردن؛ أم في توطين اللاجئين حيث هم...

ثم إن النكبة الفلسطينية لم تعد قضية وطنية تخص الشعب الفلسطيني، ولا قضية عربية تخص العرب والمسلمين؛ بل غدت قضية عالمية تخص البشرية بكل أبعادها... ولهذا فإن كل ما يختص بهذه القضية أصبح في دائرة الضوء وعناية المجتمع الإنساني بوصفها قضية إنسانية وخلقية تفرض على الجميع مكافحة الإرهاب الصهيوني الدائم، والسعي الجاد والمستمر من أجل الوصول إلى تجاوز الحدث الأول (النكبة) أياً كانت الآلام التي أنتجها، وما زال يتركها وراءه... أما المبدعون في داخل الأرض المحتلة فقد تحولوا إلى ثوار ومقاومين وقد أدركوا حق الإدراك أن قادة المجتمع الدولي آنذاك والانتداب البريطاني خاصة قد خدعوا العالم والعرب، حين انقضوا على حق الشعب العربي في فلسطين فأمعنوا فيه قتلاً، وتمزيقاً؛ وتزييفاً، وهجروا أصحابه ما جعل الشاعر الشهيد (كمال ناصر ١٩٢٥ - ١٩٧٣م) يقول:[1]

---

[1] انظر الموسوعة العربية ٤/٢٦.

إنها قصة شعب ضللوه

ورموه في متاهات السنين

فتحدى وَصَمَدْ

ومضى يشعل ما بين الخيام

ثورة العودة في دنيا الظلام

ومن ثمة رفض من غادرها إلى أرض الشتات والمنافي دسائس التوطين والمساومات الرخيصة لكي يتخلى عن وطنه كما قال معين بسيسو (١٩٢٩- ١٩٨٤م):

قد أقبلوا... فلا مساومة

المجد للمقاومة

وإذا كان مصطلح (النكبة) حقيقة ماثلة في حياة الفلسطينيين وتاريخهم وثقافتهم وأدبهم فإن أول من استخدمه الشاعر المصري أحمد محرم (١٨٧٧ ـ ١٩٤٥) في قصيدة نشرتها صحيفة (البلاغ) المصرية في (١٩٣٣/١١/١٣م)[١] حين فتح الإنكليز نار بنادقهم على المتظاهرين الفلسطينيين في تلك السنة علماً أن الأحداث والمصائب لم تتوقف يوماً من الأيام من قبلُ، ومن بعدُ..، ومنها:[٢]

يا فلسطين اصطليها نكبة   هاجها للقوم عهد مُضطرمْ

واشهديه في حماهم مأتماً   لو رعوا للضعف حقاً لم يقُمْ

---

[١] انظر ديوان العودة ٦٧ ومجلة زهراء المدائن ـ ص١٨ ـ العدد ٢٦ ـ دمشق ـ أيار ٢٠١٢م، وكان (محرم) توفي عام(١٩٤٥م).

[٢] انظر ديوان العودة ٦٨ ومجلة زهراء المدائن ـ ص١٨ ـ العدد ٢٦ ـ دمشق ـ أيار ٢٠١٢م.

واشـــربي كـأســكِ ممــا عصــروا　　مـــن زعـــافٍ جائـــل في كـــل فـــمْ

اذكـــري يومـــك في أفيـــائهم　　ودعـــي الأمـــسَ فمـــا يغـــني النـــدم

آيـــةً للبغــــي مـــــن أسمائهــــا　　حكمـــة الأقـــدار أو عـــدل القَسَـــمْ

الجهــــاد الحُــــر يقضــــي حقّـــه　　ســـؤدد العُـــرْب ويحميـــه العَلَـــمْ

لا تنــــامي للعــــوادي وادأبـــــي　　واذهـــــبي طامحــــة في المـــــزدحَمْ

في فـــؤادي جرحـــك الـــدامي وفي　　كبـــدي مـــا فيـــك مـــن حُـــزْنٍ وهَـــمْ

وتَطَرَّق له ـ على نحو ما ـ الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود من داخل الأرض المحتلة إبان ثورة (١٩٣٦م) نحو (١٩٣٧م) حين أنشد قصيدة من سبعة أبيات جاء في الخامس منها[١]:

يــــا شـــــعب يــــا مســــكين لم　　تُنْكَـــــب بنكبتـــــك الشـــــعوب

ثم تداوله عامة الناس وخاصتهم إبان نكبة (١٩٤٨م، وذكره سالم جبران المولود في (١٩٤١م) واصفاً مأساة شعبه الذي غرق بدمه ودمعه، وحرقته، بعد أن أدمت حياته قنابل الصهاينة وإرهابهم المنظم فقال سنة (١٩٤٨م)،[٢]:

كان ليل النكبة الأسود، لا إشعاع فيه

غير إشعاع القنابل

وهي تنصبّ على رأس قرىً ليست تقاتل...

ولماذا يا بلادي؟!

---

[١] انظر ديوان العودة ٧٦.

[٢] أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٢٩.

قالت الأعين في رعب

ولم تفهم تفاصيل القضيةْ

من خلال القلق المشبوب قالت:

ثم ألقينا البنانير على الأرض الشقيّه

ورجعنا للبيوت.

فهذا المقطع المجتزأ من نص طويل يظهر هول الفاجعة التي أنتجتها النكبة؛ ويسرد علينا بلغة رشيقة واضحة تلك الصور المؤثرة في النفس،وكأنه يحكي لنا حكاية واقعية تجري بكل تفاصيلها أمام ناظريه، وبين يديه من خلال حوار بين أب وابنه (عيسى).

وقد ذكر الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري ١٨٨٧- ١٩٨٤م) مصطلح النكبة في كلمة قَدَّم بها لأبيات أنشدها لأمه عام (١٩٥٤م) فقال: "إن نكبة فلسطين لا يماثلها نكبة في الأرض ولا السماء، كل خطب مهما فدح يهون بالنسبة إليها، وكل إنسان عربياً كان أم غربياً لا يحزن ولا يغضب ولا يثور لها فقد تجرَّد من كل شعور وكل إنسانية؛ وكل دين"[(١)]؛ ثم أنشد قصيدته، وعنوانها (أمتي فأمي فالإمام) وقدّم فيها بذكر فلسطين قبل الرثاء، ومنها قوله:[(٢)]

أبعـــدَ فلســـطين ينـــاح علـــى فتـــىً

وهـــــل بقيـــــت في مُقْلـــــةٍ دمعـــــةٌ بعـــــدُ

بكـــائي علـــى المليـــون أنضـــب أدمعـــي

---

(١) ديوان القروي ٨٨٦.

(٢) المصدر السابق ٨٨٧.

فمـــا أنـــا إلا النـــار والحجـــر الصـــلد

ومـا الحقـد مـن طبعـي ولكـن إذا بغـى

علـــى وطـــني البـــاغون فجَّرنـــي الحقـــد

ثم ألفت بعد ذلك بزمن كتب تتناول النكبة وأدبها ـ وفق ما أشرنا إليه قبل قليل ـ ونذكر منها كتاب (دراسات في أدب النكبة ـ الرواية) للدكتور عبد الكريم الأشتر، و (الشعر المقاوم قبل النكبة) لسمير عطية... أما مصطلحات (الفدائي والمقاومة والانتفاضة) فقد شاعت على ألسنة الأدباء وعامة الناس بعد (١٩٦٥م) بوصفها جزءاً لا يتجزأ من ثقافة الحياة والمقاومة؛ وكذلك غدت مركوزة في إبداعات المبدعين الفنية والأدبية، ويماثلها مصطلح الجهاد والكفاح وإن كانت الأقدم زمناً؛ فمصطلح الجهاد أخذ أبعاداً دينية منذ نزول الرسالة الإسلامية[١]...

وإذا كان ما سبق قد أوضح بداية استعمال مصطلح النكبة في الحياة والأدب فإن جذور النكبة الفلسطينية تعود إلى نهاية القرن الثامن عشر ومرت بمراحل عدة.

---

[١] انظر المقاومة؛ قراءة في التاريخ والواقع والآفاق ـ ص٢٥- ٣٥.

جذور النكبة ومراحلها

نكبة الشعب الفلسطيني قديمة تمتد إلى ما يزيد على قرن من الزمان قبل حدوثها سنة (١٩٤٨م) إذ قيل إنها تعود إلى ما كان يجري في أوروبا من اصطراع داخلي، وحركات تنوير اجتماعية وثقافية تحاول التحرر من سيطرة الكنيسة... وتدعو إلى المساواة؛ والعدالة... ما جعل اليهود ومؤيديهم يتحركون للتخلص من المظالم الاجتماعية التي يقاسون منها؛ نتيجة النظرة الأوروبية الدونية لهم بفعل أعمالهم الدنيئة والخسيسة، والعدوانية على بنية المجتمع الأوربي... وقد ولّد الاستيطان الأوروبي لأمريكا (العالم الجديد) فكرة الاستيطان الصهيوني في فلسطين العربية، كما نعتقد. وقد مرت سرقة فلسطين، واغتصابها، وتشويه التاريخ، وتزوير الثقافة بمراحل عدة؛ مثل ما مر أدب النكبة بإرهاصات تاريخية عدة بدأ بوصفه منتمياً إلى مفهوم الأدب العام شعراً ونثراً كما رأيناه عند إسعاف النشاشيبي (١٨٨٠ ـ ١٩٤٧م)[١] في نثره، وعبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) (١٩١١ ـ ١٩٨٤م)[٢] في شعره إلى أن غدا جزءاً لا يتجزأ من أدب الجهاد والحرب والكفاح؛ وأدب المقاومة في أجناسه كلها بما فيها الأدب الشعبي من أهازيج وأغانٍ؛ وقصائد القوالين والحكايات الموروثة عن الآباء والأجداد، والحِكَم والأمثال، فضلاً عن بقية الفنون الأخرى كالرسم الذي تحول فيه (ناجي العلي) إلى أيقونة مقاتلة؛ وكذلك هي فرقة العاشقين في الأغاني والموسيقى[٣]... وإذا كنا سنركز على الشعر الفصيح وبعض القصص والروايات فإن هذا يفرض علينا الإشارة المركزة إلى مرحلتين هامتين تاريخياً وسياسياً وفكرياً واجتماعياً

---

(١) انظر الموسوعة الفلسطينية ٤/ ١٩ ـ ٢١.

(٢) انظر المرجع السابق ٤/ ٢٣.

(٣) انظر الموسوعة الفلسطينية ٤/ ٢٧ وما بعدها ومجلة الهدف ٣٤ ـ العدد ١٤٢٩ ـ (صوت ناجي العلي وبوصلة الوطن).

قبل حدوث النكبة في (١٩٤٨م):

١ ـ المرحلة الأولى: مرحلة إرهاصات النكبة (١٧٩٨ ـ ١٩١٨م):

تعد هذه المرحلة شرارة الانطلاق إلى إنشاء (وطن قومي لليهود) في فلسطين؛ قبيل حملة نابليون بونابرت على مصر (١٧٩٨م) ومروراً بوعد (بلفور ـ ١٩١٧/١١/٢م) وانتهاء بالاحتلال البريطاني لها في (١٩١٨/٩/١٨م) ثم مؤتمر (فرساي ـ آذار ١٩١٩م) ... وما بين هذا وتلك بدأت الأفكار والمواقف تظهر هنا وهناك لحل مشكلة اليهود في أوربا وبخاصة في فرنسا وألمانيا وبريطانيا. فاليهود ـ الذين اعتنقوا الديانة اليهودية من أعراق شتى، وكما قال أستاذ التاريخ في جامعة تل أبيب البروفسور (شلومو ساند) في كتابه (اختراع الشعب اليهودي) ـ "عاشوا في تنقل وترحال على امتداد الأيام والقارات ووصلوا إلى أقاصي الدنيا، وفي نهاية المطاف استداروا مع ظهور الحركة الصهيونية كي يعودوا جماعياً إلى [فلسطين]"،مستفيدين من الآراء التي قَدَّمها لهم نابليون بونابرت على طبق من ذهب، وما أبدعته ذاكرة قادة الحركة الصهيونية، وعلى رأسهم (تيودور هرتزل) ومستغلين أحسن استغلال عقدة الذنب التي نشأت في ألمانيا خاصة وأوروبا عامة[1]، وبخاصة ما ادّعي حول المحرقة (الهولوكوست) التي قام بها الزعيم الألماني (أدولف هتلر)... وكلها أدت إلى الوعود التي وعدوا بها، بعد نجاح الاستيطان الأوروبي لأمريكا... وكان اليهود في بداية الأمر يتخيلون أن الوطن الجديد لهم هو أمريكا؛ بل (الأرجنتين) تحديداً، ثم تخيلوه في بعض دول أفريقيا (أوغندا)، ثم استداروا نحو فلسطين، كما سيأتي من بعدً... ويرى أن هذا الأمر ما هو إلا "خرافة قومية" فاقعة، منهم؛ فهم "لم يشكلوا أبداً شعباً أو قومية، وإنهم ليسوا كذلك حتى الآن". ولهذا فقد غاص في أعماق التاريخ محاولاً إيجاد شعب

---

[1] انظر كتاب (هتلر مؤسس إسرائيل) ـ ص ١٦ و ٣٨ و ٥٢ و٥٦ ـ ٥٩ و ٦٢ ـ ٦٤ و ٦٦ ـ ٦٧ و ٧٧ ـ ٧٨ و ٩٤ ـ ٩٧ و ١٤٦ ـ ١٤٨.

يهودي، فلم يجد "شعباً عرقياً" يحمل أصولاً واحدة[1]؛ فاليهود ينتمون إلى شعوب عدة ودول عدة. وعلى الرغم من ذلك كله فإن عدداً من الصهاينة؛ ولاسيما في ألمانيا أخذوا على عاتقهم مهمة اختراع الشعب اليهودي واختلاق قومية يهودية عنصرية توسعية استيطانية[2]، واختيار فلسطين وطناً قومياً لها.

ويؤكد هذا كله ما ذهب إليه رئيس قسم الانثروبولوجيا في المتحف الأمريكي الأستاذ (هاري. ل. شابيرو) في دراساته التاريخية للشعب اليهودي حين قال: "إن الاختلاف العريض في الصفات الجسمية للسكان اليهود، وتنوع الجينات الموروثة المتوافرة في فئات دمهم تجعل إدراجهم تحت أي تصنيف عرقي موحد التناقض بعينه"[3].

ومن ثمة لا يمكن أن يشكلوا جنساً واحداً بوصفهم يتكلمون ما يزيد على سبعين لغة، وهم الذين قَدموا من تسعين بلداً في العالم؛ وفيهم السود والصفر والبيض... ما يفيد بأنهم لا يشكلون أمة واحدة... ما جعل الحركة الصهيونية تتبنى جملة من الأفكار الدينية لتوحيدهم. ولا شيء أدل على هذا مما كتبه (ليوبنسكر) في كتابه (التحرر الذاتي) يسوغ فيه إقامة وطن لليهود؛ ومما ورد فيه "إن اليهود قوم شبح لا وطن لهم، وبما أن الإنسانية تكره الأشباح لذلك تنزل بهم الشعوب الاضطهاد والتعذيب والحل ـ إذاً ـ يكمن في تحويلهم من قوم شبح إلى قوم طبيعي. وهذا يتم إذا ما أقاموا وطناً لهم في مكان ما عندئذٍ يتوقف اضطهادهم"[4]

---

[1] انظر كتاب (اختراع الشعب اليهودي) شلومو ساند ـ المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار) ـ رام الله ـ أيلول ٢٠١٠ وهو صادر ـ أيضاً عن المكتبة الأهلية بعمان.) وانظر الصهيونية ٩ ـ ١٣ ومجلة الطلائع ١٠ ـ ١٢ ـ العدد ١٥٧٧ ومجلة فلسطين المسلمة ١٥ ـ العدد ٦.

[2] انظر الموسوعة الفلسطينية ٤/٦ ـ/٧ و١٠٣ و ٥٣٤ ـ ٥٤٩ والصهيونية ١٣ ـ ١٨ والمقاومة ٦٠ ـ ٩٢.

[3] الصهيونية ١٥ ـ ١٦.

[4] الصهيونية ٣١.

وتعدُّ حملة نابليون بونابرت على مصر إحدى محطات البداية لتحقيق أفكار الحركة الصهيونية؛ وإقامة الوطن القومي المنشود لليهود في فلسطين[1]، ما جعلنا ـ على الصعيد الفعلي والرسمي ـ نعدها نقطة ارتكاز لتدفق شذاذ الآفاق إلى الأرض المحتلة؛ وحدوث النكبة بعد ذلك لا يعادلها إلا ما قام به (أدولف هتلر) لترحيل اليهود الصهاينة إلى فلسطين[2]. وكانت قوات فرنسية قد توجهت إلى الاسكندرية بتاريخ (١٧٩٨/٦/٢٨م) ونزلت بشواطئها في (١٧٩٨/٧/١م). وقد استعمل نابليون سياسة الخداع والترغيب لاستمالة أهل مصر... وصمم على كسر شوكة الإنكليز واحتلال فلسطين وسورية فوجه قواته إلى غزة ويافا فقتلت من قاومها من السكان وسلبتهم أموالهم... ثم توجهت إلى (عكا) في (١٧٩٩/٣/١٨م) وحاصرت أسوارها المنيعة لمدة شهرين تكبدت فيها القوات الفرنسية خسائر كبيرة انسحبت على إثرها، وكانت بداية الانهزام والخروج مدحورة من مصر (١٨٠٣م). وقد سجَّل هذا الحدث التاريخي الشاعر المصري علي محمود طه المولود بتاريخ (١٩٠٢/٨/٣م) والمتوفى عام (١٩٤٩م)، ومما جاء في مطلع قصيدة له قوله:[3]

عكّاءُ في الساحل الشرقي شامخة ... تُطاول النجم أبراجاً وأسوارا

كم غرَّرت بالغزاة الصِّيد والتفتت ... إلى جحافلهم هَزْواً وإصغارا

ولا مراء في أن اليهود قد استغلوا حملة (نابليون) حين قدّموا المال اللازم الذي احتاجت إليه[4] إذ قيل: إن المليونير اليهودي اللورد (ماير روتشيلد) هو مَنْ موّلها وأقنع نابليون بإعطاء وعد لليهود بتوطينهم في فلسطين وفحواه قوله "أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد الذي لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن

---

[1] انظر المرجع السابق ٥/٦.

[2] راجع ما تقدم ص ٢٦ حاشية (٢).

[3] علي محمود طه (شعر ودراسة) ٣٢٩ ـ ٣٣١.

[4] انظر أحجار على رقعة الشطرنج (التطبيق العملي لبروتوكولات حكماء صهيون) ٢١ و ٦٠ ـ ٦٢ و ٧٤ و ١٠٦ ـ ١٠٨.

تسلبه اسمه ووجوده القومي، وإن كانت قد سلبته أرض الآباء والأجداد إن مراقبي مصائر الشعوب هم فقط أدركوا أن عتقاء الله سيعودون لصهيون، وهم يغنون، وسيولد الابتهاج لتملكهم الإرث دون انزعاج فرحاً دائماً في نفوسهم. لقد نسي ذلك العار تحت قيد العبودية والخزي الذي أصابهم... لقد كانت الظروف غير ملائمة للتصريح بمطالبكم والتعبير عنها، بل وإرغامكم على التخلي عنها، فإن فرنسا تقدم إليكم - أيها الإسرائيليون - الفرصة في هذا الوقت لإعادة تأسيس أورشليم كما كانت في الماضي؛ تقدم لكم إرث إسرائيل في هذا الوقت بالذات"[1] . ونجح (روتشيلد) في هذا الأمر كما يشير إليه (إيلي ليفي أبو عسل) حين قال: "كانت فكرة إعادة اليهود إلى فلسطين في طليعة المرامي والمشاريع الاجتماعية السامية التي كانت تجول في مخيلة نابليون الوقادة ويطمع في تحقيقها حيال المسألة الشرقية..." ومن ثم وضع الاقتراح بالاتفاق مع فرنسا لإقامة وطن يهودي يمتد من إقليم الوجه البحري في مصر إلى عكا... وإذا كانت الفكرة قد ذهبت أدراج الرياح نتيجة انهزام الحملة الفرنسية[2] فإن أفكار الحركة الصهيونية التي ابتكر مصطلحها (ناثام برنباوم) عام (١٨٩١م) وفق معيار علم الأحياء كانت تراود الصهاينة، وبعده في صميم تأسيس الصهيونية الدينية، ثم الصهيونية السياسية التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر على يد الصهيوني المتطرف الصحفي النمساوي (تيودور هرتزل ١٨٦٠ - ١٩٠٤م). واستمر قادة الحركة الصّهيونية في تأسيس فكرة (أرض الميعاد) و (شعب الله المختار) في الأذهان[3]، وزعموا أنهم أُخرجوا منها بغير حق؛ وتعرضوا لأنماط من السبي والتعذيب، مستندين في ذلك إلى الخرافات الواردة في (التوراة) والأدبيات اليهودية والصهيونية فضلاً عن ظهور ما سمي (حركة أحباء صهيون)[4] في

---

[1] المأزق العربي - ٩.

[2] حينما أخفق نابليون بتحقيق وعده حاول اليهود قتله انظر انظر الصهيونية ٦٨ - ٧٢..

[3] انظر الهولوكست ١١ - ١٢.

[4] انظر الموسوعة الفلسطينية ٨/٦ والمنظمات الصهيونية٧٩ والهولوكوست ٢٧ والصهيونية ==

أوربا الشرقية... وكانت ـ في زعمهم ـ من أجل التخلص من (الغيتو) الذي عانى منه اليهود في أوربا علماً بأن اليهود هم الذين اختاروا العزلة لأنفسهم[١]، كما يثبته الكاتب الروسي (فيدور دوستويفسكي ١٨٢١ ـ ١٨٨١م) حين تحدث عن الملامح اليهودية وهي "عدم التبدل أو التحول على مستوى المعتقد الديني؛ عدم الامتزاج مع الآخرين؛ الثقة العمياء بأنه لا يوجد على الأرض سوى شخصية واحدة هي الشخصية اليهودية، أما الآخرون ـ وبالرغم من [وجودهم الحق] إلا أنه يتوجب عدم أخذهم بالحسبان: اخرج من الشعوب واحتفظ بشخصيتك المتفردة واعلم أنك الوحيد عند الرب؛ اسْحَق الآخرين، أو حوّلهم إلى عبيد، أو استغلهم كما تشاء، ولا تختلط بأحد، وحتى عندما تُطرد من الأرض وتفقد شخصيتك السياسية؛ حتى عندما تتشرد في مختلف أنحاء المعمورة وبين مختلف الشعوب"[٢]... وحين سعت أوروبا إلى خلق دولة مستقلة يتجمع فيها اليهود من كل أنحاء العالم كان الهدف من هذا التخلص من تبعات اليهود في بلدانها في الوقت الذي ترى أنهم سيكونون قوة احتياطية كبيرة لأوروبا في مناحٍ عدة اقتصادياً وعسكرياً واجتماعياً... وسيكونون القوة السياسية التي تعرقل المشروع النهضوي التنموي العربي[٣]... فالدّولة اليهودية العتيدة ستكون رأس حربة لمشاريع أوربا وأمريكا في الهيمنة على الوطن العربي خاصة، والمنطقة برمتها؛ في حين تعطّل التنمية في المنطقة، لأن كل شيء فيها سيتحول إلى الإعداد للدفاع عن الذات الوطنية. ولعل ذلك كله جعلهم يعقدون العزم على الهجرة إلى فلسطين منذ وقت مبكر؛ فواجهوا

---

٢٩ ـ ٣٠.

(١) خصص الأستاذ يوسف سامي اليوسف كتاباً لذلك بعنوان (الغيتو الصهيوني) انظر فيه ١٦ ـ ٤٨، ثم انظر فيه شذوذ الغيتو وانحطاطه في الفصلين الثاني والثالث.

(٢) انظر المسألة اليهودية ١٧ ـ ١٨.

(٣) انظر سورية الاستهداف والمؤامرة ٢١- ٢٧، والاستيطان الإسرائيلي في فلسطين بين النظرية والتطبيق ـ ص٤ وما بعدها.

مقاومة شديدة[1]. فأوربا أجمعت أمرها على إنشاء عدد من المشاريع لحل المسألة اليهودية على حساب العرب أو غيرهم، في البداية؛ وقررت مع مثقفي الصهاينة اختراع شعب[2]، له مواصفات الشعوب الأصيلة؛ واختراع دولة تجمعهم مع الإشارة إلى أنه لا يملك أي صفة تحقق له هذه البنية الحيوية التاريخية الحضارية من ثقافة وتراث ولغة وعناصر أخرى جامعة... ما جعل الصهيونية تبحث عن كل السُّبل لإنجاح فكرتها. وكان المتعصب الصهيوني (تيودور هرتزل ـ ١٨٦٠ ـ ١٩٠٤م)[3]، قد قام بدور كبير في ذلك كله[4]، تجسَّد ـ آنذاك ـ بإصدار كتابه المعروف (الدولة اليهودية) سنة (١٨٩٦م) ثم دوره النشط في عقد مؤتمر (بازل ١٨٩٧م) في (سويسرا) الذي نجح في إيجاد المناخ المناسب لتأسيس الحركة الصهيونية وتحقيق أهدافها بتجزئة المنطقة العربية، واستدرار عطف العالم بالتضليل الدائر حول مآسي الشعب اليهودي المقهور، والمشتت في بلدان العالم؛ ولا منجاة لليهود إلا بإيجاد أرض تجمعهم، ويقيمون دولتهم عليها؛ في أي مكان من العالم شريطة أن تكون تحت حماية الاستعمار البريطاني... وكان الرأي في بداية الأمر قد استقر على (موزامبيق) ثم تحول إلى (الكونغو البلجيكي)، على حين رجَّح (حاييم وايزمن) (أوغندا) ثم تأرجح الرأي بين (الأرجنتين ـ ١٨٩٧م) وشبه جزيرة سيناء (١٩٢٠م) وجزيرة قبرص وليبيا (١٩٠١- ١٩٠٤)؛أما بريطانيا فقد فضَّلت (أوغندا ـ ١٩٠٣- ١٩٠٤م) ولكن تيودور هرتزل اختار فلسطين بوصفها أرضاً بلا شعب[5]. ولهذا

---

(١) انظر ملامح في الأدب المقاوم ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) انظر كتاب اختراع الشعب اليهودي؛ والموسوعة الفلسطينية ٦/٦ ـ٩ والهولوكوست ٣٥ ـ ٥٩ و ٧٩ ـ ٨١ والصهونية ١٩ ـ ٣٠.

(٣) انظر دولة اليهود ١٢ ـ ١٨ من المقدمة و ٩١ ـ ٩٩ من الكتاب؛ وبحثنا (مصير القدس في ظل مشروع التهويد ـ ١٣).

(٤) ذهب كثير من الباحثين إلى أن (هرتزل) يعد المؤسس الحقيقي للحركة الصهيونية انظر مجلة العودة ـ ص ٣٠ ـ ٣١ ـ مقال (باطل الميعاد... د. حسن الباش).

(٥) انظر الموسوعة الفلسطينية ٣٢٠/٦ ـ ٣٣١ والهولوكوست ١٢ ـ ١٣ و ٤٩ ـ ٦٠ و ١٠٧ ـ ١٠٥.

قال هرتزل في ذلك المؤتمر: "لقد بدأنا بوضع اللبنة الأولى لبناء الدولة اليهودية... وإذا قُدّر لنا وأخذنا القدس فسوف أمحو وأزيل كل أثر لا يمتّ لليهود بصلة...".

وبدأ سعي أوربي حثيث مع الحكومة العثمانية في استانبول للحصول على امتيازات لليهود، فانتهى الأمر إلى حائط مسدود؛ ولكن المنظمة الصهيونية اتخذت قراراً نهائياً بعد وفاة هرتزل، ووفاء له عام (١٩٠٥م) للقيام بالإجراءات الكفيلة للسيطرة على فلسطين... فاستخدمت الدين وسيلة لذلك بمثل ما أججت نار الفتنة والعداوة بين مصالح الدول الكبرى آنذاك؛ وتمكنت من إشعال الحرب العالمية الأولى فيما بينها، بوصفها ضرورة لتحقيق الهدف الصهيوني؛ والقضاء على الدولة العثمانية؛ وتقسيم المنطقة بين دول الاستعمار الأوروبي، وفق اتفاقية سايكس ـ بيكو (١٩١٦/٥/١٥م) التي أعلن عنها من بعدُ... وكان هرتزل يرى أن قيام الدولة اليهودية سوف يقدم خدمات كبرى للغرب الاستعماري؛ وستكون الجدار القوي لأوروبا في مواجهةالعرب وشعوب آسيا؛ إذ قال: "سوف تشكّل بالنسبة إلى أوروبا قسماً من الجدار المرتفع في وجه آسيا، وستكون الحارس الأمامي ضد البربرية"[١].

ومن ثم بدأت قوافل الهجرة اليهودية تتجه إلى فلسطين لاستيطانها رويداً رويداً، ومن ثم اغتصابها كاملاً...؛ وتعهدت وثيقة (كامبل بنرمان ـ ١٩٠٧م) رئيس وزراء بريطانيا آنذاك بتجزئة المنطقة لتحقيق أهداف الحركة الصهيونية علماً أنها نصت على "إنشاء حاجز بشري غريب على الجسر الذي يربط إفريقية بآسيا على شرق المتوسط لحماية المصالح الاستعمارية"[٢]. وما لبث المشروع الصهيوني أن تجلى للعيان في مواجهة المشروع القومي العربي وفق ما ذكره الباحث اللبناني نجيب عازوري سنة (١٩٠٥م)[٣].

---

(١) انظر ـ مثلاً ـ كتاب (هتلر مؤسس إسرائيل) ـ ١٥٢ ـ ١٥٥ و ١٦٣ ـ ١٧٣ و ١٧٧ ـ ١٨٣.

(٢) انظر سورية الاستهداف والمؤامرة ٢٤ ـ ٢٦، وملحق البعث ـ حوار ـ ص ٧ ـ ٩ ـ العدد ٦٨ ـ الاثنين ٢٠٠٨/٥/٥م ـ مقال (في الذكرى الستين للنكبة).

(٣) انظر الموسوعة الفلسطينية ٥/٦ و ٣٢٢ ـ ٣٥٠.

وأخذت تتضح مفاهيم جدلية العام والخاص في القضية الفلسطينية وقضايا المنطقة منذ وقت مبكر؛ بمثل ما برزت المخاوف من الهجرة المنظمة لليهود إلى فلسطين تحت أنظار دول الانتداب الأوربية وبخاصة بريطانيا[1]وقد عمل (هرتزل) بقوة على إقناع الحكومات الأوروبية بفكرته؛ مشجعاً إياها على التخلص من اليهود الذين لم يستطيعوا الانصهار في المجتمع الأوروبي؛ فقال ـ مثلاً ـ للقيصر الألماني: "دعونا نرحل، نحن نختلف عنكم، ولا يسمح لنا بالانصهار في مجتمعكم، على كل حال نحن عاجزون عن تحقيق ذلك"... ومن يمعن قراءة كتابه (الدولة اليهودية) سوف يجد أموراً أخرى تضاف إلى ذلك... وكذلك يمكنه أن يجد في كتاب المفكر الفرنسي (روجيه جارودي) بعنوان (إسرائيل القضية) ـ حَوْل تشجيع هجرة اليهود الألمان إلى فلسطين ـ ما نصُّه "هذا الإجراء الألماني الذي أملته بعض اعتبارات السياسة الداخلية يشجع احتمال تدعيم الدين اليهودي في فلسطين، ويسرّع في إنشاء دولة يهودية فيها". ونقرأ في الكتاب نفسه مقولة مستشار الخارجية الألمانية (كلوديوس) في (١٩٣٨/١/٢٧م) ومفادها "إن مسألة هجرة يهود ألمانيا... قد بُتَّ فيها من جديد بقرار شخصي من الفوهرر (هتلر) يقضي باستمرار الهجرة".

ويقوي هذا كله ما جاء في كتاب (نشوء إسرائيل) لحاييم وايزمن؛ والصادر في باريس (١٩٥٧م)، وفيه قال: "من شأن فلسطين يهودية، أن تكون ضمانة لانكلترا، ولاسيما فيما يتعلق بقناة السويس"... وكان (حاييم وايزمن ـ ١٨٧٤ ـ ١٩٥٢م) قد توجه إلى فلسطين لتأسيس شركة (تطوير أراضي فلسطين) في يافا سنة (١٩١٦م).. وهي السنة التي عقدت فيها اتفاقية (سايكس ـ بيكو) التي حَدثنا عنها الشاعر حسن البحيري (١٩٢١ـ ١٩٩٨/٢/٢٣م) من بعدُ في قصيدة له؛ ومنها:[2]

لئن قسَّموا الدار التي نحن أهلها بما حفلت من وَذْيَةٍ ومناقب

---

(١) انظر المرجع السابق ٦/١٠ ـ ١٥.

(٢) الوطنية في شعر حسن البحيري ٥٨.

فما قسَّموا ما في الجوانح من هوىً مكامنه بين الحشا والترائب

وكيف تَقرُّ القدس في حضن هَجْعَةٍ وبيروت ترميها سهام المصائب

وهل تستقر النار في قلب جِلَّقٍ وعمان عنها في بروج السحائب

ستبقى ربوع الشام تمطر بالدما إلى يوم نُعليها متون الكواكب

فهذا النص يشير إلى الاتفاقية المذكورة أعلاه، والتي نصت على توزيع المنطقة بين فرنسا وبريطانيا؛ وتحقيق أهداف الحركة الصهيونية صراحة وفق ما أثبته إعلان وزير خارجية بريطانيا اللورد (آرثر جيمس بلفور ـ ١٨٤٨ ـ ١٩٣٠م) في وعده المشؤوم بتاريخ (١٩١٧/١١/٢م)، وجاء فيه " إن الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وسوف تبذل أفضل جهودها لتسهيل بلوغ هذه الغاية"[1] وقد أيده الكونغرس الأمريكي بالإجماع"[2] من بَعْدُ، على الرغم من أنه "لم يكن له سند في أحكام القانون الدولي أو أساس.... وقد جاء متعارضاً مع الوعد السابق المعطى للعرب بحسب وثيقة (الشريف حسين) (مكماهون) بعد دخولهم الحرب إلى جانب الحلفاء بأن يمنحوا الاستقلال والسيادة على أراضيهم بعد الحرب... بل إنه ليس ثمة سبيل للوفاء به إلا على حساب العرب" كما قال الصحفي الإنكليزي (مايكل آدمز) في (االغارديان) البريطانية يوم (١٩٦٧/١١/٣م) علماً أن بريطانيا لم يكن لها أي سيادة على فلسطين آنذاك، ولم يكن هناك أي حق أو قانون يخوّلها مثل ذلك الوعد المشؤوم، ومنحها اليهود أرضاً لا تملكها... ولعل هذا كله قد دفع بريطانيا إلى احتلال فلسطين بالكامل في (١٩١٨/٩/١٨م)... ثم توجه الجيش البريطاني ـ بعد ذلك

---

(١) انظر المرجع الأسبق ١٢/٦ و ١٠ ـ ١٥ و٥٤٩ ـ ٥٥٤ وانظر نص الوعد كاملاً في (الهولوكوست ١٨٠) وكفاح عرب فلسطين ١٥ وسورية (الاستهداف والمؤامرة) ـ ص٢٧-٢٨.

(٢) انظر الوطنية في شعر حسن البحيري ١٠٥.

ـ إلى القدس بقيادة الجنرال (ادموند اللنبي) ومعه فيلق يهودي ... وقد تنبأ الأمير اللبناني (شكيب أرسلان ـ ١٨٦٩ ـ ١٩٤٦م)بحدوث النكبة قبل وقوعها. وحينما تنبَّه على الخطر الصهيوني فإنه نبه ـ أيضاً ـ على وعد بلفور ـ قبل حدوثه ـ حين استشعر الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وخروج العثمانيين خفية من فلسطين؛ فكتب المقالات بهذا الشأن، وحذر من الخلاف والشقاق بين أبنائها، وأرسل الرسائل للزعماء العرب يشرح لهم أبعاد الهجرة الصهيونية، وظل ذلك دأبه حتى مات[١].

ولعل الشاعر الفلسطيني المبدع عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) المولود بطولكرم (١٩٠٧م) والمتوفى بدمشق (١٩٨٠) كان سباقاً إلى الكشف عن الأخطار الناجمة عن اتفاقية (سايكس ـ بيكو) و(وعد بلفور) وما تركه كل منهما من آثار ضارة بعيدة المدى ما جعل الناس ينتفضون عليهما، ومما قاله[٢]:

قومـوا اسمعـوا مـن كـل نـا ... حيـــة يصـــيح دم الشـــهيد

قومـــوا انظـــروا القسَّـــام ... يشـــرق نـــوره فـــوق الصـــرود

يـــوحي إلى الـــدنيا ومـــن ... فيهـــا بإســـراء الخلـــود

فاتفاقية (سايكس ـ بيكو) ليست اتفاقية عابرة قسمت الوطن العربي بين الدول الاستعمارية الأوربية؛ وأنهت حكم الدولة العثمانية؛ وإنما هي مؤسسة على وثيقة (كامبل بنرمان) ومبنية على أهداف مؤتمر (بازل) في إنشاء الدولة الصهيونية السياسية؛ وفق رؤية (هرتزل) الذي قال آنذاك: "إن ما يلزمنا ليس الدولة العربية الموحّدة، بل البلاد العربية المحررة من الأتراك ولكنها الضعيفة المقسمة إلى عدد من الإمارات الواقعة تحت سيطرتنا، والمحرومة من إمكانيات الاتحاد ضدنا"

---

[١] انظر مجلة العودة ـ ص ١٤ ـ العدد ٥٦ ـ دمشق ـ أيار ٢٠١٢م.

[٢] انظر أزمة فلسطين ١٦٠.

لقد حقق وعد بلفور هذه الأفكار، بعد أن وفَّرت الأرض المناسبة لذلك فتَشظى العرب دويلات؛ وأخذ الغرب الاستعماري يمارس تطبيق سايكس /بيكو... ولعل هذا كله فرض على الملك فيصل الأول الاجتماع مع حاييم وايزمن في عام (١٩١٨م) لمدة ساعتين اتفقا فيها على التعايش بين العرب واليهود في فلسطين، ثم اجتمعا مرة أخرى في (١٩١٩/١/٣م) اعترف فيها الملك فيصل بوعد بلفور موافقاً على بنوده مفضلاً الإذعان على التمرد والثورة. ولهذا أرسل بعد شهرين رسالة إلى القاضي الصهيوني (فيلكس فرانكفورتر) عضو الوفد الصهيوني إلى مؤتمر (فرساي) مؤكداً ما رآه، مستغلاً غياب الشعب العربي عن رؤية تصرفاته.[1].وقد أشرنا من قبل إلى أن فلسطين خلصت نهائياً للاستعمار البريطاني في (١٩١٨/٩/١٨م) ولم يبق للدولة العثمانية أثر في اليوم الثاني[2].

ولهذا أنشد الشاعر المهجري (إيليا أبو ماضي) قبل عام (١٩٤٠م) ـ وهو المولود بلبنان قرية (المحيدثة) في (١٨٩١م) والمتوفى بنيويورك (١٩٥٨م) قصيدة طويلة بعنوان (فلسطين) ردَّاً على صنيع الاستعمار الأوربي؛ وهي قصيدة تنتمي إلى فن المنذرات والعتاب الذي يصل إلى حَدِّ الهجاء حين عَرَّض بوَعْد (بلفور) الذي قدَّم لليهود أرضاً ليست له أو لهم؛ وفيها هدَّد الشاعر المهاجرين اليهود بأن فلسطين ستصبح قبراً لهم إن لم يرجعوا من حيث جاؤوا، ومما قال فيها[3]:

[1] انظر في ذلك كله ما ورد في مجلة المعرفة ـ السورية ـ ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ـ العدد ٥٥٣ ـ تشرين الأول ٢٠٠٩م.

[2] انظر الوطنية في شعر حسن البحيري ٣٤ ـ ٣٥.

[3] إيليا أبو ماضي (الأعمال الشعرية الكاملة) ـ ٧٩٠ ـ ٧٩٢ وانظر ـ أيضاً ـ (الوطنية في شعر حسن البحيري ١٢ و ١٠٨ ـ ١١٠).

ديـــار الســـلام وأرض الهنـــا | يشـــقّ علـــى الكـــل أن تحزنـــا
وكيــف تطيــب الحيـــاة لقـــوم | تُســـــدُّ علـــيهم دروب المُنـــى
بلادهـــم عُرْضـــة للضـــياع | وأمـــتهم عُرْضـــة للفنـــا

ثم قال:

فقـــل لليهـــود وأشـــياعهم | لقــد خــدعتكم بــروق المنــى
ألا ليـــت بلفـــور أعطـــاكم | بـــلاداً لــــه لا بــــلاداً لنـــا
فلنـــدن أرحــب مــن قدســـنا | وأنــــتم أحـــبُّ إلى لُنـــدنا
أيســـلب قـــومَكمُ رشـــدهم | ويـــدعوه قـــومُكم محســـنا
ويـــدفع للمـــوت بالأبريـــاء | ويحســــبُه معشـــرٌ دَيِّنـــا
فليسـت فلسـطين أرضـاً مشـاعاً | فتعطـى لمـن شـاء أن يسـكنا
وإن تهجروهـــا فـــذلك أولى | فـــإن فلســـطين ملـــك لنـــا
وكانـــت لأجـــدادنا قبلنـــا | وتبقـــى لأحفادنـــا بعـــدنا
وإمـــا أبيـــتم فأوصـــيكم | بـأن تحملـوا معكـم الأكفنـا

ولم يكن تحذير الشعراء من أخطار وعد (بلفور) قليل الأهمية؛ فالآثار السلبية الناتجة عنه آثار كارثية على كل الصعد كما أثبته (آفي شليم) المؤرخ الصهيوني، إذ قال: "كان وعد بلفور واحداً من أسوأ الأخطاء التي ارتكبتها السياسة الخارجية البريطانية في النصف الأول من القرن العشرين" و"انطوى على ظلم كبير للعرب الفلسطينيين، وزرع بذور صراع لا ينتهي... رغم كل القوة العسكرية التي يتمتع بها الإسرائيليون فإنهم لن يربحوا المعركة على المدى الطويل؛ ورغم الضعف العسكري الذي يعاني منه

الفلسطينيون فإنهم لن يخسروا كل شيء...."[1]

وكذلك عبر الشاعر العراقي (معروف الرصافي ١٨٧٥- ١٩٤٥م) عن ثورته تجاه السياسة الأوروبية الباطلة والمنحرفة؛ والمتآمرة على العرب فقال قصيدته المعروفة سنة (١٩٢٥م) معبراً عن ذلك؛ ومما جاء فيها[2]:

وكم عند الحكومة من رجال تراهم ساسة وهم عبيد

كلاب للأجانب ولكن على أبناء جلدتهم أسود

ومن ثم ربط الشعراء الصراع بين الحق والباطل على الصعيد العربي وبين ما حدث من تآمر أوروبي على العرب، ودعوا إلى تحرير الإنسان من ربقة القهر والعبودية.

فقد حاولوا تأسيس الوعي بالسياسة الاستعمارية التي تتبناها الدوائر الغربية /الصهيونية؛ والكشف عن المتاهات التي وقعوا فيها نتيجة ذلك. وإذا كانوا قد بذلوا ما استطاعوا لردّ العدوان الغربي الصهيوني فإنهم أكدوا بقاءهم على العهد.

وبهذا صارت قضية فلسطين قضية عربية تحررية تبحث عن حقوق شعب ضاعت في دهاليز التآمر والنفاق،وبخاصة حين تحوّلت الهجرة اليهودية إلى استعمار استيطاني يرمز إلى كل أشكال الاحتلال والقهر؛ وشرعت تعبر عن الظلم الفادح الذي حاق بالشعب الفلسطيني، ظلم يتجذَّر بالجرح النازف في النفس والجسد من المصائب والآلام؛ ما فرض على هذا الشعب مقاومة كل آثاره كون مقاومته ضرورة وخياراً وجودياً. وتعالت الأصوات برفضِه صادحة بالثورة والتمرد على تلك الهجرة وعلى الانتداب البريطاني المحتل التي رعاها. وبمعنى آخر أصبحت القضية الفلسطينية منذ وعد بلفور قضية عربية ذات أبعاد نضالية شتى بدأت بالكلمة والموقف حين راح الشعب العربي يرى أن

---

[1] مجلة العودة ـ ص ١٠ ـ العدد ٥٦.

[2] انظر أزمة فلسطين ١٦١.

فلسطين تؤخذ من أبنائها في حالة من الذهول والعجز جزءاً تلو الآخر؛ وهم غير قادرين على مواجهة آلة الفتك الصهيونية والبريطانية... وفق ما نراه عند أحمد محرم (١٨٧٧ ـ ١٩٤٥م) نفسه في قوله من قصيدة بعنوان (وعد بلفور) منها:[١]

تلك العروبة جرحها يجري دما — من يمنع الإسلام أن يتألما

هذا تراث محمد في قومه — أمسى بأيدي الناهبين مُقَسَّما

أَثَر السيوف عليه والدم حوله — حَرَّان يصرخ: أين أبطال الحمى؟!

فهذه القصيدة تفخر بالشهداء الأبطال الذين قضوا في سبيل فلسطين، وتنعى على الأحياء عدم الاقتداء بهم؛ ما فجرَّ في نفسه كوامن الأسى واللوعة، ما يؤكد أن هناك تلازماً بين النضال الوطني والقومي؛ فشهداء فلسطين شهداء الأمة برمتها؛ والقضية الفلسطينية قضية عربية وليست وطنية فحسب... وحين يتجه التعبير الشعري إلى فلسطين فإنما يتأطر بكل ما هو قومي[٢]، ولذلك رأى الشاعر أن وعد (بلفور) يقسم تراث العروبة على أعدائها، ولا أحد يفعل شيئاً إلا إقامة أيام للحداد يبكي فيها فلسطين في ذكرى الوعد المشؤوم كما حدث في تحديد يوم للحداد في البلاد العربية بتاريخ (١٩٤٥/١١/٢م) وأنشد فيه من مصر الشاعر علي محمود طه المولود بالمنصورة في (١٩٠٢/٨/٣م) قصيدة له ومنها[٣]:

فلسطين لا راعتك صيحة مغتال — سلمتِ لأجيالٍ وعشتِ لأبطال

ولا عَزَّك الجيل المفدَّى ولا خبت — لقومكِ نار في ذوائب أجيال

وقال في آخرها:

---

(١) انظر مجلة زهرة المدائن (ص ٢٠ ـ ٢١)؛ وانظر الموسوعة الفلسطينية ٧٢/٤.

(٢) انظر ملامح في الأدب المقاوم (٨٧ ـ ١٠٥) ـ ط٢ ..

(٣) انظر ـ مثلاً علي محمود طه (شعر ودراسة) ٤٠٧ ـ ٤١١.

سمعنا، خُدعنا؛ وانتبهنا فحسْبُنا   لقد ملَّتِ الأسماءُ قيثارك البالي

ويا أيها الغرب المواعدُ لا تزِدْ   كفى الشرق زاداً من وعودٍ وأقوال

شبعنا وجعنا من خيالٍ منمَّق   ومنه اكتسينا ثم عُدنا بأسمال

ومن ثمة فالشاعر محمد مهدي الجواهري (١٨٩٩ ـ ١٩٩٧م) يحز في نفسه أن تضيع فلسطين وتلحق بأختها الأندلس، فيصبح كل منهما فردوساً مفقوداً، ومما قاله:[١]

سيلحقون فلسطيناً بأندلس   ويعطفون عليها البيت والحرما

فيا فلسطين إن نعدمك زاهرة   فلست أول حق غيلة هُضما

وهناك قصائد شتى تناولت الأحداث التي وقعت في أماكن عدة من أرض الوطن بعد الوعد المشؤوم؛ الذي عُدّ بداية المرحلة الثانية وهي المرحلة الأصعب والأخطر في تاريخ الأمة العربية؛ إذ تحولت مخططات الغرب الاستعماري من إطار التنظير إلى إطار التطبيق والفعل... وحين شهد الأدباء حالة انكسار الخريطة العربية بالاتفاقيات الاستعمارية فإن قلوبهم لم تنكسر على امتلائها بالآلام... فعزائمهم اشتدت لمواجهة ذلك بالنفس والكلمة... وهذا ما نوضحه فيما يأتي...

٢ ـ المرحلة الثانية: مرحلة تأصيل النكبة ١٩١٨م ـ ١٩٤٨م:

تبين لنا أن الاحتلال البريطاني لكامل فلسطين استكمل في (١٩١٨/٩/١٨م) وخرجت الحكومة التركية في اليوم الثاني؛ ثم كان مؤتمر (فرساي) في شهر آذار (١٩١٩م) ثم وقعت جريمة عصبة الأمم المتحدة حين أقرت قرار الانتداب البريطاني على فلسطين في (١٩٢٢/٧/٢٤م). وتمتد هذه المرحلة التي نتناولها ـ هنا ـ حتى النكبة[٢]؛ وهي مرحلة لا تقل بشاعة في

---

[١] ديوان الجواهري ١٥٧ ـ ١٥٨.

[٢] انظر الوطنية في شعر حسن البحيري ٣٤ ـ ٣٥.

التاريخ الإنساني عن المرحلة اللاحقة لها؛ إذ ارتكبت بريطانيا أفظع جريمة إنسانية بحق الشعب الفلسطيني؛ يوم زرعت الصهاينة في فلسطين نتيجة تبني التاريخ الأسطوري التلمودي؛ والخرافات اليهودية التي نسجها مخيال وهمي كاذب للأرض الموعودة وشعب الله المختار؛ كما ذكره أستاذ في الجامعة العبرية بالقدس (يتسحاك باعر) في كتابه (المنفى) الذي نشره عام (١٩٣٦م)؛ وكان قد هاجر من ألمانيا إلى فلسطين عام (١٩٢٩م). وكان الصهاينة يوهمون بأن حقهم في فلسطين تؤيده كتبهم القديمة... بيد أن التاريخ الموثوق به أبطل هذه المزاعم؛ بمثل ما فضحت زيفها الآثار المختلفة التي ظهرت هنا أو هناك؛ أو تلك الآثار التي حوتها المتاحف الفلسطينية؛ مثل (متحف الآثار الفلسطينية) في مدينة القدس، ومتحف صغير في قلعة عكا، وآخر في جامع عمر قرب المسجد الأقصى. وكلها أثبتت تجذّر الشعب الفلسطيني في فلسطين منذ العصر الحجري حتى العصر البرونزي المتأخر (١٦٠٠ ـ ١٢٠٠ ق.م). وكذلك كان هذا الشعب في العصور اللاحقة مثل الرومانية والإسلامية، على حين لم تشر الآثار إلى أي مخلفات يهودية... فالمتاحف والآثار والأوابد الأخرى تجسد ذاكرة الشعوب غير القابلة للتزييف والكذب؛ وهويتها الحضارية الثابتة والباقية، بمثل ما تمثل روح الإبداع وشاهده الحي، والممتد فينا على الدوام... فهي مرآة الأجيال المتعاقبة في الفضاء الزماني والمكاني وليست مجرد كنوز أثرية تتباهى بها الأمم والشعوب... ومن ثمة فإن هذا التراث الحضاري الذي يختزن عبق المجد والتاريخ يؤكد بما لا يقبل الشك أن وحدة التاريخ والثقافة لشعب ما لا تتجزأ، أياً كانت عبقرية بعض آثاريي الجنس اليهودي الذين حاولوا اختراع ذاكرة غير موجودة... فقد صدمتهم الحقيقة في الشام والعراق ومصر والجزيرة العربية، وكشفت عن تهافت أفكارهم التي انساقوا فيها وراء مزاعم وأوهام قادة الحركة الصهيونية فيما زعموه حول وجودهم التاريخي في فلسطين المحتلة، وسعوا جاهدين لإثبات هذا الأمر... ولو افترضنا أنهم استطاعوا صناعة ذاكرة آثارية كاذبة، وحاولوا غرس أفكار غير حقيقة في أذهان الناس فإن ذلك سرعان ما يظهر لبقية العلماء... فالذاكرة المصطنعة والمزيفة لا تصمد أمام العلم الآثاري الموضوعي للاستيطان البشري الأزلي للأرض واستثمارها وفق ما

انتهى إليه الدكتور عفيف بهنسي مؤيداً بذلك كل من سبقه من علماء الآثار؛ إذ قال: "تحول علماء الآثار - العاملون في بلادنا على الأقل - إلى المنطق واليقين العلمي... أثر هذا التحول كثيراً في الفكر الأثري العالمي، وانحسرت السياسة الصهيونية المدسوسة في المراكز الأثرية العالمية، وتعالت أصوات العلمانيين الأثريين مما يبشر بنهاية عهد الهيمنة التوراتية على علم الآثار، وانفتاحه على الحقيقة العلمية... ويؤكد الكشف الأثري كل يوم أن [إسرائيل] هي خارج المكان والزمان، ولم تكن موجودة في التاريخ إلا في أوهام من كتب التوراة، بل أصبحت [إسرائيل] فضيحة السياسة العالمية التي آمنت بالوهم والخداع لتبرير الاستيلاء على أرض ليست [الإسرائيل] لا تاريخياً ولا حضارياً، بل هي لسكانها العرب الذين أقاموا عليها دياناتهم وثبتوا عقائدهم..."[١] وهو الحكم الذي ذهبت إليه الدراسات وبعض الأشعار المختلفة أيضاً[٢]... وعلى الرغم من ذلك فقد قُدِّمت فلسطين لقمة سائغة إلى الصهاينة الذين طفقوا يتوافدون إلى فلسطين سراً وعلانية؛ وبأسلوب منظم غالباً؛ وفق سياسة استيطانية مدبَّرة ومبيَّتة كما يثبته (زئيف جابو تنسكي) الصهيوني المتطرف وزعيم (حركة حيروت) التي سميت من بَعْدُ (الليكود)؛ في قوله: "إننا سنطرد العرب من فلسطين وشرق الأردن وسنقذف بهم في الصحراء وسنبني الدولة اليهودية"[٣]، ونقرأ مثل هذا في خطاب ديفيد بن غوريون يوم السابع من آب (١٩٣٧م)؛ ومنه قوله: "يعتبر ترحيل السكان من محاور برنامج الاستيطان الشامل؛ ولحسن طالعنا فإن العرب يسكنون مناطق شاسعة بائسة. إن تعاظم قوة اليهود في البلاد سيسمح بتدعيم إمكانية ترحيل واسعة النطاق.

---

[١] انظر حكمة العروبة ١٨ - ١٩، وانظر مجلة العودة ٤٢.

[٢] انظر الموسوعة العربية ١٩/٤ وما بعدها و٢٤١ وما بعدها و٤٢٩ وما بعدها و٧٨٣ وما بعدها.

[٣] الصهيونية ٨١ وانظر فيه ٨٢ - ٨٦ - أقوال عدد آخر. وجابوتنسكي هو الذي ابتكر فكرة (الجدار العازل) عام (١٩٢٣م) بين العرب والصهاينة، وأطلق عليه آنذاك (الجدار الحديدي)، ثم بدأ رئيس الوزراء الصهيوني الأسبق (أرئيل شارون) عام (٢٠٠٢م) تنفيذه في الضفة الغربية بطول (٨٥٠كم)، أما حاضن القدس فطوله يبلغ (١٧٠كم) وهو يهدف إلى عزل القدس عن باقي البلدات والقرى الواقعة تحت إدارة السلطة الفلسطينية...

وعليكم تذكر أن هذه الفكرة تحمل صبغة إنسانية صهيونية حيث يتعلق الأمر بترحيل قسم من السكان إلى وطنهم الخاص واستيطان أراضٍ غير مسكونة"[1]. وهذا الخطاب يوافق ما ورد في مذكرات (تيودور هرتزل) المكتوبة عام (١٨٩٥م) وورد فيها: "يجب علينا القيام بانتزاع الملكيات بمهارة... سنسعى إلى دفع السكان باتجاه الجانب الآخر؛ إلى الحدود، دون أملاكهم وأموالهم عن طريق تقديم فرص عمل في بلدان العبور وعن طريق منعهم من أي فرصة عمل في بلادنا، يجب أن نقوم بمصادرة الأملاك وطرد الفقراء"[2]. ومن ثم فإن المهاجرين الصهاينة عاثوا في فلسطين فساداً وتزويراً؛ وقتلاً وتدميراً، وسعياً حثيثاً لشطب الذاكرة الفلسطينية من الآثار والحياة والثقافة ومحو كل ما يتصل بالتاريخ الفلسطيني يدعمهم في ذلك كله عناية بريطانية رفيعة. فلما مارست بريطانيا الغطاء السياسي لأعظم هجرة استيطانية للصهاينة إلى فلسطين منذ وعد بلفور ساعدت الصهاينة في اقتلاع أبناء فلسطين الأصليين منها[3]؛ وارتكاب المجازر الوحشية، وكل أصناف التعذيب والعنف بحقهم وأيدتها الحكومة الأمريكية حين صرح الرئيس الأمريكي (روزفلت) عام (١٩٤٤م) بدعمه "لهجرة يهودية غير محددة إلى فلسطين؛ وإقامة دولة يهودية ديمقراطية فيها"[4].

ولمّا حاول الرئيس الأمريكي خداع العالم بهذه المقولة عميت بصيرته عن السماح لمئات الآلاف من الصهاينة بالهجرة إلى فلسطين وارتكابهم المجازر الهمجية الكبرى في السنوات التالية. ولكن الشعب الفلسطيني لم يهدأ يوماً، وعقد العزيمة على مواجهة الانتداب البريطاني وعصابات الصهاينة المتوحشة التي ارتكبت الجرائم تلو الجرائم، كما حدث في (١٩٣٠/٦/١٧م) حين

---

[1] صحيفة البعث - ص١٥ - (نظرة جديدة إلى حرب ١٩٤٨م) - العدد ١٤٥٤١ - دمشق - الأربعاء ٢٠١٢/٥/٣٠م.

[2] انظر المرجع السابق (البعث - ص ١٥).

[3] انظر الصهيونية ٣٥ - ٦١.

[4] انظر الصهيونية ٦٠.

علقت أعواد المشانق للأبطال الثلاثة الذين أعدمهم الانتداب البريطاني إرضاء لتلك العصابات... فقد شهد سجن عكا المركزي آنذاك جريمة مازالت راسخة في عقول كل من رآها أو سمع عنها بوصفها جريمة ترتكب بالنيابة عن الصهاينة؛ أما العرب فهم من يدفع الثمن... ثم تتابعت جرائم العصابات الصهيونية من دون رادع بإشراف السلطات البريطانية، وكذلك استمر الشعب بنضاله مؤكداً تمسكه بحقه في الدفاع عن نفسه ووطنه... وأضحى الشعب الفلسطيني يمارس دفاعه الشرعي والخلقي عن وجوده، وحياته؛ وتمسكه بأرضه وأرض آبائه وأجداده، ولم تخدعه أساليب الإغراء والترهيب والإذلال التي اتبعها الانتداب البغيض. وقد مارس المقاومة بوجهيها الإيجابي بالكلمة والنفس، وبالسلبي؛ وفق المنهج الذي اعتمده المناضل والزعيم الهندي (المهاتماغاندي).

وقد بلغ عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين عام (١٩٣٥م)(٦٢) ألفاً، ولذلك رفع إبراهيم طوقان صوته صارخاً في آذان العرب لينتبهوا لخطر الهجرة اليهودية، إذ قال:[١]

يهاجر ألف ثم ألف مهرّب ويدخل ألف سائحاً غير آيب

بني وطني هل يقظة بعد رَقْدةٍ؟ وهل من شعاع بين تلك الغياهب؟!!

وفي (١٩٣٥/٨/١٤م) زار سعود بن عبد العزيز القدس فقال الشاعر الفارس (عبد الرحيم محمود) (١٩١٣ ـ ١٩٤٨م) مخاطباً إياه:[٢]

نجمُ السعودِ وفي جبينك مطلعه أنى توجَّهَ ركب عزك يتبعُهْ

والقوم قَومُك يا أمير إذا النوى فَرَقَتْهُ آمالُ العروبة تجمعُهْ

---

[١] انظر ديوان إبراهيم طوقان ٧١.

[٢] انظر مجلة فلسطين المسلمة ٥٤ ـ العدد (٦) ومجلة زهرة المدائن ص ١٨ ـ العدد ١٧ ـ و ص ٧ العدد ٢٦ وكفاح عرب فلسطين ١٣٧ وانظر فيه ٥٧ ـ ٦٠.

يـا ذا الأمـير أمـام عينـك شـاعر ... ضُمَّت على الشكوى المريرة أَضْلُعُهْ

المسـجد الأقصـى أجئـت تـزوره ... أم جئـت مـن قبـل الضـياع تودعـه؟!

حُـرَم تبـاح لكـل أوكَـع آبـقٍ ... ولكـــل أفّـــاق شـــريدٍ أربعُـــهْ

فالشاعر الفارس الذي نشأ في سفوح قرية (عنبتا)، وتربى في أسرة مناضلة تثور لكرامة وطنها كان يتقلب على لظى الاستعمار البريطاني ودسائسه ومساندته السرية للعصابات الصهيونية وتغطيته لجرائمها... وقد استشعر ما الذي يخبئه القدر للمسجد الأقصى قبل مدة طويلة؛ وكأنه ينقل إلى الآفاق فكرة غير قابلة للتصديق...وكذلك كان يرى أن الحياة لا تروق له إلا إذا محا الاستعمار وآثار مفاسده، وطفق يحمل روحه المتمردة في ساحات النضال متمنياً أن يكون شهيداً كما قال في أبيات له، ومنها:[1]

روحـــي عـــبءٌ مثقـــل عـــاتقي ... أيـــان أُلـــقِ العـــبء عـــن عـــاتقي

تغلـــو علـــى النـــاس ولكـــنني ... أبيعهـــــا للنـــــاس بالـــــدانق

يـــا ليـــتني أشـــلاء في مهمـــه ... مناشـــــة الناعـــــب والنـــــاعق

وفي ضوء هذا النص البديع ندرك أن الشاعر لم يكن مجرد نسَّاج يخيط النص ببراعة؛ وإنما كان نصه يقدّم رؤية استبصارية للغد القادم؛ وهو الذي حدثنا عن شهادته كأنه يراها رؤية اليقين؛ حين تناولها في قصيدة بعنوان (الشهيد)، ومنها:

ونفـــس الشـــهيد لهـــا غايتـــان ... ورود المنايـــــا ونيـــــل المنـــــى

لعمـــرك إنـــي أرى مصـــرعي ... ولكـــن أعُـــدّ إليـــه الخُطـــى

أرى مقتلـــي دون حقـــي الســـليب ... ودون بـــــلادي هـــــو المبتغـــــى

---

(1) كفاح عرب فلسطين ١٤٠.

إذاً كانت كلمته المقاومة لا تقل تأثيراُ عن بطولاته في مواجهة المحتل، وهو القائل[1]:

سأحمل روحي على راحتي	**وألقي بها في مهاوي الردى**
فإما حياة تسرُّ الصديق	**وإما ممات يغيظ العدى**

وظل ذلك ديدنه حتى حقق له القدر أمنيته في الاستشهاد في معركة الشجرة من شهر أيار عام (١٩٤٨م) عن خمسة وثلاثين عاماً ولُقِّب بالشاعر الفلسطيني الشهيد. وكان في بدء الحرب العالمية الثانية قد غادر فلسطين إلى العراق وتخرج في الكلية الحربية ملازماً، وشارك في ثورة رشيد عالي الكيلاني، ثم سرعان ما عاد إلى فلسطين، وانخرط في صفوف المقاومة من جديد حتى استشهاده، وهو من قال في ذلك:[2]

احملوني... احملوني	**واحذروا أن تتركوني**
وخذوني لا تخافوا	**وإذا مت ادفنوني**

فإذا كان هذا الشعر ينتمي إلى رثاء الذات، ويتحسس معاني التضحية بالنفس لتحرير أرضه أو نيل الشهادة ـ وفق ما كان يتطلع إليه شعراء الخوارج في العهد الأموي ـ فإنه يوصي من بعده باتباع منهجه في المقاومة واسترخاص النفوس لكي تبقى فلسطين عزيزة منيعة، وهو يعلم أن الشجاعة والجرأة والإقدام طباع مركوزة في نفوس أبناء قومه.

أما الشاعر إبراهيم طوقان الذي توفي هو الآخر عن ستة وثلاثين عاماً (١٩٠٥- ١٩٤١م) فقد توجه إلى القيادة الفلسطينية كي توقف حوارها مع الإنكليز، واعتماد روح المقاومة التي أسسها المناضل (عز الدين القسَّام) في ثورته اللاهبة عام (١٩٣٤م) وعرفت باسمه، ثم استشهد في

---

[1] انظر أزمة فلسطين ١٦٢ والموسوعة العربية ٣١/٤.

[2] جذور الهوية الفلسطينية ـ السيد نجم ـ/الشابكة وكفاح عرب فلسطين ١٠٤ ـ ١١٠، و١٤١ ـ ١٤٢ والبحيري ٦٠ والوطنية في شعر حسن البحيري ٤٢ ـ ٤٣.

(١٩٣٥/١١/١٩م)؛ فلابد من استخدام الزنود القوية للحصول على الحق فقال:[١]

أنــتم العــاملون مــن غــير قــول ... بــــارك الله في الزنــــود القويــــه

مـا جحـدنا أفضـالكم، غـير أنـا ... لم تـــزل في نفوســـنا أمنيَّـــه

وهو الذي تنبه للموجات الصهيونية المهاجرة إلى فلسطين وفق ما ذكرناه، ودعا إلى الحد منها، ورأها جزءاً من السياسة البريطانية الخبيثة؛ علماً أنه نبه في قصيدته (سباعية) على المؤامرات الشريرة التي تحاك ضد وطنه حين ربط بين الخداع البريطاني والحلم الصهيوني، وأنشدها عام (١٩٣٥م) مفضلاً فيها طريقة مواجهة الانتداب البريطاني على الركون والاستسلام لما يجري، ومنها:[٢]

أمامـــك أيهـــا العربـــي يـــوم ... تشـــيب لهولـــه ســـود النواصـــي

مصـــيرك بـــات يلمســـه الأدانـــي ... وســـار حديثـــه بـــين الأقاصـــي

منـــاهج للإبـــادة واضـــحات ... وبالحســـنى تنفـــذ والرصـــاص

فالشعب الفلسطيني أصر على المواجهة؛ ومقاومة كل أشكال الدسائس البريطانية؛ والتصدي لكل جرائم العصابات الصهيونية، وتفنيد مزاعمها... ومن ثم صار الأدب المقاوم ابن القضية الوطنية النضالية، وقد انحاز الأديب إلى وطنه بالفطرة،وغدا كالقنديل الذي يضيء الطريق للمناضلين الذين يقاتلون من أجل حقهم في الوجود والعيش الكريم في وطن حر؛ ومستقل.ومن ثم كان كل أديب يصوغ إبداعه من أبجدية المقاومة والوعي العالي بالدفاع عن الذات والوجود ،وإن تأطر في حالة وجدانية عالية... وبمعنى آخر غدا الأدب

---

(١) مجلة زهرة المدائن ص٧ ـ العدد ٢٦.

(٢) ديوان إبراهيم طوقان ٨٦ ـ ٨٧ وانظر كفاح عرب فلسطين ٦٣ ـ ٧٥ والبحيري ٥٦ وانظر إبراهيم طوقان (دراسة) ٢٩٣.

المقاوم شعراً ونثراً قضيةروحية ممزوجة بقيم العدالة الإنسانية؛ التي تكره التزييف والتضليل وقلب الحقائق كما تمارسه حكومة الانتداب البريطاني.

وأياً ما يكن اتجاه الأدب المقاوم في هذه المرحلة فقد استطاع تقديم النكبة الفلسطينية بوصفها قضية نضالية سياسية كما ألفيناه ـ مثلاً ـ عند الشاعر مطلق عبد الخالق (١٩١٠ ـ ١٩٣٧م) وعبد الرحيم محمود (١٩١٣ ـ ١٩٤٨م) وإبراهيم طوقان (١٩٠٥ ـ ١٩٤١م) والقاص أحمد شاكر الكرمي (١٨٩٤ ـ ١٩٢٧م) وخليل بيدس، (١٨٧٤ ـ ١٩٤٩م) الذي أصدر أول رواية فلسطينية في القدس عام (١٩٢٠م) بعنوان (الوارث)[١] التي فُقدت بعد نكبة (١٩٤٨م)، ثم عُثر عليها، وطبعت بتقديم الناقد الدكتور عادل الأسطة. وهي تتحدث عن شاب حلبي يعيش في القاهرة؛ مع عمه الثري. وكان أحبَّ راقصة يهودية، حاولت أسرتها الاستيلاء على ثروة هذا الشاب بوصفه الوريث الوحيد لعمه. وهي حين تتناول ذلك تعرض لمدى الكراهية التي يخفيها الصهاينة تجاه العرب. كان كل أديب مقاوم أو مثقف ملتزم، أو وطني حر يحاول مواجهة الاحتلال البريطاني وأعوانه من الصهاينة بكل الوسائل وكشف محاولات الصهاينة بسرقة الأرض والتراث والثقافة والثروة... ولهذا وقع على عدد غير قليل من المبدعين والمثقفين العنف والإرهاب والاعتقال الانفرادي والجمعي ولاقى من صنوف العذاب الهمجي، وعانى من سفك الدماء كما حدث في ثورة البراق عام (١٩٢٩م)[٢] وأحداث عام (١٩٣٣م) و(١٩٣٥م)،

وظلت الحال على ما هي عليه حتى اندلعت ثورة (١٩٣٦) حين قام الشعب بإضراب عام ونفذ تظاهرات عارمة ألهبت حماسة المبدعين وأججت عواطفهم فأنشد الشاعر كمال ناصر (١٩٢٥ ـ ١٩٧٣م) قصيدة تحدث فيها عن الانتداب والصهاينة، وكان آنذاك في بداية مراهقته، وواحداً من المشاركين فيها. ومما قاله فيها من بعدُ:[٣]

---

(١) انظر الموسوعة الفلسطينية ٤/١٤١ ـ ١٤٣ و ١٤٩ وجريدة تشرين ـ ص ١١ ـ العدد ١١١٣٠.

(٢) انظر ملامح في الأدب المقاوم ٢٩ ـ ٣١ والموسوعة الفلسطينية ٤/٢١.

(٣) انظر الآثار الشعرية ٢٩.

هـــــذه فلســــــطين الأبيــــــة في السلاســــــل والقيــــودْ

يقضـــي بهـــا الخصـــم العنيـــد ولـــيس تنفعهـــا الجهـــودْ

قَـــرَّت بهـــا عـــين الجبـــان وكـــل نمّـــام حســـودْ

مـــا بـــين ظلـــم الإنكليـــز وبـــين طغيـــان اليهـــود

يـــا مكدونالـــد تـــرى تناســـيت المـــودة والعهـــود

أيـــام كنـــت لنـــا الحليـــف وكنـــت ذا الخِـــلَّ الـــودود

لا بـــد للتـــاريخ يومـــاً أن يعـــود وأن يســـود

فالشاعر يؤكد أن فلسطين لا ترضى بأن تعيش في الأصفاد والقهر والتعذيب والقتل والنفي... وإذا كان الجبان قد رضي بذلك فإن الحر الشريف أبى أن يستكين للذل والظلم البريطاني؛ وتوحش العنصر اليهودي وغلاة القهر والطرد... فالشعب الفلسطيني سوف يحطم أغلال الاحتلال، ولن يستطيع هذا الاحتلال سلب الوطن الذي يمثّل لأبنائه مفهوم القداسة وشرط الحرية، ولذلك قالت فدوى طوقان[1] المولودة بنابلس (١٩١٧م) والمتوفاة في (٢٠٠٣/١٢/١٣م):

هـويتي سـأظل أحفـر اسمهـا حتى أراه يمتد في وطني ويكبر

فالنكبة تصدَّرت للعالم بوعد بلفور؛ ثم راحت تزداد دموية وبؤساً بعد ذلك حتى أخذ الشعب الأبي في فلسطين يخط بوعيه ونضاله طريق الثورة التي شارك فيها المثقفون والمبدعون وعامة الناس فكانت ثورة (١٩٣٦م)... وهي الثورة التي انبثقت رداً على سياسة حكومة الانتداب البريطاني التي تعبث بالوطن، فلزمت أبناءه التضحية في سبيله، على الرغم من وجود خيانات كانت تقع من الذين سقطوا في مستنقع النذالة والجبن والضعف، ومهما

[1] انظر الموسوعة العربية ٤٦/٤.

كانت الآثار السلبية لهذه الخيانات فإنها لم تفتَّ في عضد المجاهدين، ولن تحرفهم عن درب النضال إلى أن تتحقق أهدافهم... وقد برز المناضل الحاج (أمين الحسيني) قائداً متميزاًلتلك الثورة التي أجبرت بريطانيا على صياغة الكتاب الأبيض الذي تعهدت فيه بإنشاء الدولة الفلسطينية خلال عشر سنوات.. ولكن المأساة استمرت، ولم يبق للشرفاء من الشعب أمل إلا بالأطفال كما قال إبراهيم طوقان من قبل:[1]

أنـــتم المخلصـــون للوطنيـــة   أنــتم الحــاملون عــبء القضــيه

في يـــدينا بقيـــة مـــن بـــلاد   فاسـتريحوا كـيلا تضـيع البقيـه

فالأديب أينما كان موقعه إنما يتجه إلى وطنه بوصفه صورة للحياة الكريمة والوجود الحر، وهو منقوش في وجه كل مواطن وقلبه، لا يمكن لقوة البطش التي يملكها المحتل أن تقتلع حب الوطن من النفوس، أو أن تزرع الكراهية فيها، ولو خذله بعض الحمقى والمغفلين، أو باعه أصحاب الضمائر الخسيسة، أو هجره عدد من أبنائه من الذين غلبت عليهم رعشة حبّ البقاء كما قال توفيق زيّاد ـ ذات يوم ـ[2]:

سأحفر كلَّ ما تحكي لي الشمس
ويهمسُه لي القَمر
وما ترويه قبَّرة
على البئر التي عشاقُها هجروا
لكي أذكر...
سأبقى قائماً أحفر
جميع فصول مأساتي

---

[1] مجلة زهرة المدائن ص ٧ ـ العدد ٢٦.

[2] أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ٩٤- ٩٥.

وكل مراحل النكبة:

من الحبة

إلى القبة

.... على زيتونة

في ساحة الدار.

وفي هذا الصدد لا يمكننا أن نتغافل عن قصيدة حسن البحيري المولود في حيفا عام (١٩٢١م) والمتوفى بدمشق في (١٩٩٨/٢/٢٣م) (نشيد بلادي) الذي يتناول فيه بطولة الأحفاد الذين يسيرون على هدى جهاد الأجداد، ومما قاله:[١]

إذا ما دعى داعي الدفاع عن الحمى

رأيت قوانا تملأ الأرض والسما

وصيحتنا يوم التقدم مثلما

روى أرضك الأجداد نرويك بالدما

وبهذا كله لم يتخلف الشعر الشعبي المقاوم[٢] عن الشعر الفصيح؛ فهناك شعر شعبي متداول بهذا الشأن لا يقل شهرة عن قصيدة إبراهيم طوقان في شهداء الثلاثاء الحمراء (١٩٣٠/٦/١٧) التي استشهد بها (عطا الزير ومحمد جمجوم وفؤاد حجازي)[٣].

وكذلك في الرواية كانت رواية (دجاجة) لإسحق موسى الحسيني المنشورة عام (١٩٤٣م) واحدة من الروايات التي رسمت صورة المآسي التي يعاني منها الشعب الفلسطيني إبان الانتداب البريطاني، ما يدل على الجرح

---

(١) البحيري ٦١.

(٢) انظر الموسوعة الفلسطينية ٢١/٤ و ٦٧ ـ ١١٣.

(٣) انظر المرجع السابق ٢٣/٤ و ٧٤ و ٨٠.

الفلسطيني الدامي[1]. ولكن أدباء فلسطين خاصة والعربية عامة لم يضعفوا أو يستكينوا؛ فقد هبُّوا في طليعة قومهم، يدعون إلى لمّ الشمل، متشبثين بيقينهم الراسخ بانتصار أمتهم مهما كانت المذابح التي ينصبها عدو متوحش، ومتعطش للدماء... وهم يؤكدون يوماً إثر يوم أن مقاومة المحتل الغاصب وعصاباته الصهيونية تعدُّ مدرسة للبطولة وصناعة شجرة الحياة الكريمة.

وكان أدباء فلسطين على وعي بما يجري حولهم لا تخدعهم مؤامرات الانتداب البريطاني؛ ولا الخداع الذي تمارسه لجان التحقيق المرسلة إلى فلسطين، كما يتضح لنا من خطاب حسن البحيري الذي فضح ألاعيب لجنة التحقيق ومنه:[2]

يـــا لجنـــةً كبّلتنـــا — قيودهـــــا الوحشـــــيَّهْ

لا تحســـــبينا عبيـــــداً — لا تعـــــرف الحريَّـــــهْ

فـــنحن في الـــدهر أهـــل الـــ — جهـــاد أهـــل الحميّـــهْ

نحـــن الألى قـــد رفعنـــا — منـــــائر المدنيّـــــه

وكذلك فإن افتراءات الحركة الصهيونية، والأضاليل التي اخترعتها لإقناع العالم برؤاها الفكرية المزعومة لم تغب عن أذهان الشعراء والمبدعين، ففندوا ما قامت به من قلب حق الدفاع عن الوطن إرهاباً وتخريباً، وهذا ما عبر عنه الشاعر الفلسطيني راشد حسين (١٩٣٦ ـ ١٩٧٧/٢/٢م) في قصيدته (ضد) ومنها:[3]

(١) انظر الموسوعة الفلسطينية ١٤٣/٤ و ١٤٦ ـ ١٤٨.

(٢) الوطنية في شعر حسن البحيري ٥٧.

(٣) ديوان راشد حسين ـ المجموعة الشعرية (أنا الأرض لا تحرميني المطر ـ ص ٢٥ ـ ٢٦).

ضد أن يجرحَ ثوار بلادي سنبلهْ
ضد أن يحمل طفل - أي طفل - قنبلهْ
ضد أن تدرس أختي عضلات البندقيهْ
ضد ما شئتم... ولكن
ما الذي يصنعه حتى بنيٌّ أو بنيّهْ
حينما تشرب عينيه وعينيها
خيول القتلهْ
ضد أن يصبح طفل بطلاً في العاشرهْ
ضد أن يثمر ألغاماً فؤادُ الشجرهْ
ضد أن تصبح أغصان بساتيني مشانقْ
ضد تحويل حياض الورد في أرضي مشانقْ
ضد ما شئتم... ولكن
بعد إحراق بلادي
ورفاقي
وشبابي
كيف لا تصبح أشعاري بنادقْ

وفي مقام الحديث عن بعض اتجاهات النكبة لا ننسى الشاعر إبراهيم طوقان الذي آلمه أن يجد بعض الشعراء العرب الكبار مثل (أحمد شوقي (١٨٦٨ - ١٩٣٢م) وحافظ إبراهيم (١٨٧١ - ١٩٣٢م)، وخليل مطران - شاعر القطرين؛ الشام ومصر (١٨٧١ - ١٩٤٩م) الذي نظم قصيدة في السلطان العثماني عبد الحميد رامزاً إليه بنيرون) يشيحون وجوههم عن المصائب التي يرتكبها الاحتلال البريطاني ومن استجلبهم من شذاذ الآفاق بينما يلتفتون إلى غيرهم؛ فيخاطبهم قائلاً؛ ومنه[1]:

جئـتكم عاتبـاً بلابـل مصـر   بلبـــلُ الـــروض عَتبُـــهُ ألحـــان

---

[1] انظر مجلة زهرة المدائن (ص٢٠).

مـا لمطـران يـا فلسـطين شـأن　　　بــك لكــن لــه بــنيرون شـــان

فالشاعر يعتمد أسلوباً رقيقاً في لفت انتباه كبار العربية من الشعراء كي يولوا عنايتهم لقضيتهم الأساسية؛ لما يستشعره فيهم من مكانة في نفوس أبناء أمتهم... ولِمَا يراه من أثر الأدب في تكوين القيم النضالية والمشاعر الوطنية المتأججة... ولمَّا استصرخهم لذلك لم يسقط في الابتذال والانحراف عن الذوق الرفيع، لا في لفظه ولا معناه...

فنكبة عام الثامن والأربعين أحدثت في نفوس المبدعين اغتراباً ذاتياً وموضوعياً ولكنها في الوقت نفسه زادتهم إصراراً على التضحية، وتحدي الطغاة الغازين وإرهابهم الوحشي والمنظّم...

وكذلك عُني الأدباء بنكبة فلسطين أيما عناية سواء في الوطن العربي أم في بلاد المهجر... ولا شيء أدل على هذا كله من قول الجواهري الذي رفض فيه الاحتلال الصهيوني ودعا إلى تحرير فلسطين، ونبَّه العرب على خطر الإرهاب الصهيوني الماحق، كما قاله في واحدة من قصائده؛ ومنها:[1]

لـو اسـتطعت نشـرت الحـزن والألمـا　　　علـى فلسـطين مسـوّداً لهـا علمـا

رمـتُ السـكوت حـداداً يـوم مصـرعها　　　فلو تركت وشـأني مـا فتحـت منهـا

ثم قال:

يـا أمـة لخصـوم ضـدها احتكمـت　　　كمـا ارتضـيت خصـيماً ظالمـاً حكمـا

بالمـدفع استشـهدي إن كنـت ناطقـة　　　أو رُمـت أن تسـمعي مـن يشـتكي الصـمما

وفي ضوء ذلك كله أخذت المواجهة طريقاً واضحاً وجاداً؛ وإن كان انفعالياً ورومانسياً في داخل الأرض المحتلة... وإذا كانت بقية الأقطار العربية تعاني من الواقع الاستعماري نفسه فإن أغلب أبنائها ظلوا مشدودين إلى قضية فلسطين... وبهذا كله تبين لنا أن أبناء الشعب الفلسطيني على شدة مصائبهم

---

(1) انظر ديوان الجواهري ٤/ ١٥٧ ـ ١٥٩.

حاولوا التشبث بتاريخهم وهويتهم، والحفاظ على قيمهم الأصيلة بروح تفيض بالحب واليقين، وكانت عيونهم ترنو إلى المستقبل المستتر وراء الأفق... وساندهم في ذلك أكثر أبناء العروبة وهو نعثر عليه في المرحلة التي تلت النكبة.

٣ ـ المرحلة الثالثة ـ النكبة والبحث عن الذات (١٩٤٨ ـ ١٩٦٥م):

تعد هذه المرحلة ممثلة لأحداث النكبة بعد قرار تقسيم فلسطين رقم (١٨١) تاريخ (١٩٤٧/١١/٢٩م) الصادر عن مجلس الأمن الدولي؛ إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية. وهو قرار عنصري ظالم وغير مسبوق على الرغم من التاريخ السيئ للأمم المتحدة[١] مع القضية الفلسطينية لأنه قَدَّم جزءاً من فلسطين تقدر مساحته (٥٤٪) هدية لشذاذ الآفاق من الغرباء الصهاينة الذين تجمعوا في فلسطين من دول عدة ولا سيما الغربية وروسيا... وكذلك جعل هذا القرار مدينة القدس منطقة دولية غير تابعة لأحد وتقدر مساحتها (١٪) ... ثم ما إن قررت بريطانيا إنهاء انتدابها لفلسطين في (١٩٤٨/٥/١٤م) حتى أعلن المجلس القومي اليهودي الصهيوني إنشاء دولة صهيونية استيطانية[٢] عنصرية برئاسة (ديفيد بن غوريون)[٣] ـ وهو أول رئيس لهذه الدولة اللقيطة التي تستند في كينونتها إلى الأكاذيب التوراتية والتلمودية، والخرافات اليهودية المتداولة لتهويد الأرض والتاريخ وتدمير الأقصى، وبناء الهيكل المزعوم، وفق ما ذكره الباحثون على مختلف مشاربهم[٤]؛ ثم قبلت هذه الدولة عضواً في الأمم المتحدة بالقرار رقم (٢٧٣ ـ ٣) تاريخ (١٩٤٩/٥/١١م). وهو يشير إلى قرار

---

(١) انظر الموسوعة الفلسطينية ١٢٩/٦ ـ ٢٢٠.

(٢) انظر المرجع السابق ٢٣/٦.

(٣) انظر صحيفة البعث (نكبة فلسطين.. أربعة وستون عاماً) ص ١٥ ـ العدد ١٤٥٢٨ تاريخ٢٠١٢/٥/١٥م.

(٤) انظر ـ مثلاً ـ كتاب ـ المنظمات الصهيونية ـ الصادر عن هيئة الأبحاث القومية، وبحثنا (مصير القدس في ظل مشروع التهويد) ١١ ـ ٤١.

التقسيم (١٨١) وإلى قرار حق العودة رقم (١٩٤) تاريخ (١٩٤٨/١٢/١١م) الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة.. وهكذا كانت ولادة دولة الكيان ولادة ناتجة عن زواج فكر الحركة الصهيونية بالمصالح الغربية في المنطقة[1]؛ بوصفها تجسّد رغبة جامحة للغرب بالهيمنة عليها، والاستمرار في استنزاف طاقاتها ومواردها، والتدخل في شؤونها... وكانت حكومة الانتداب البريطاني تعلم علم اليقين بتشكيل العصابات الصهيونية المجرمة من اليهود الصهاينة مثل عصابة (الهاغانا) و (الآراغون) و(شتيرن)، فضلاً عن أنها أَمَدَّتها بالأسلحة وأسباب التفوق؛ على حين لم تسمح للشعب الفلسطيني ببناء أي قدرة عسكريةوكان ديفيد بن غوريون قد خاطب المنتسبين إلى تلك العصابات الإجرامية وغيرها، ـ وهي التي كوّنت الجيش الصهيوني من بَعْدُ ـ قائلاً: "أهنئكم على قيام دولتكم، لكن أحب أن أقول لكم:... إن انتصاركم لم يأت من قوتكم... إنما من ضعف عدوكم...". وهو الذي أوصى خلفه في رئاسة الوزارة الصهيونية (موسى شاريت) بعشر وصايا تتضمن **الأولى** إبعاد مصر عن العرب لإضعاف قوتهم، ومحاولة استمالة بعض أفراد النخبة فيها بالمال، وتهديد أمنها القومي وممارسة الضغوط عليها من خلال الموارد المائية وقناة السويس؛ وإشاعة المشكلات فيها و**الثانية** تحذر من الشمال (سورية) فلا بد للعين الصهيونية أن تكون يقظة.... و**الثالثة** تغذي نار التفرقة بين سورية والعراق وتزيد نار العداوة بينهما، و**الرابعة** تزرع الشقاق بين دول الجزيرة العربية من جهة والعراق وسورية من جهة ثانية، و**الخامسة** تقوي الوجود الهاشمي في الأردن وتسعى إلى دعمه مادياً ومعنوياً لاستمالته من جهة وليكون حامياً لدولة الصهاينة من جهة أخرى.... و**السادسة** يحاول الصهاينة كسب ود حكام الجزيرة العربية، وتحييد دول المغرب العربي... وتنص **السابعة** على ما يأتي: " الأمن ثم الأمن، ثم الأمن، والجيش ثم الجيش ثم الجيش، لاشيء يتقدم الأمن والجيش..."

أما **الثامنة** فهي تأمر بالعمل في ظل الدول الكبرى والتنسيق معها

[1] انظر الموسوعة الفلسطينية ٦/١٦ ـ ٢٠.

(بريطانيا وفرنسا وأمريكا) بينما تنص **التاسعة** على "الهجرة ثم الهجرة، ثم الهجرة اجمعوا كل يهود العالم هنا، في البقاع التي أعطيت لنا، حرضوا اليهود في روسيا والولايات المتحدة الأمريكية والهند وإيران والبلاد العربية على الهجرة إلى بلادنا..." على حين نصت الوصية **العاشرة** على تهجير العرب من فلسطين والاستيلاء على بيوتهم وأراضيهم وكل ممتلكاتهم وإخراجهم بالقوة أياً كان شكلها.... [1] وقد برز عدد غير قليل من سفّاحي تلك العصابات مثل (حاييم وايزمن وديفيد بن غوريون واسحق شامير ومناحيم بيغن، وشمعون بيريز وموشي دايان، وإيغال آلون وأرائيل شارون واسحق رابين...) ولم تتورع تلك العصابات الصهيونية عن ممارسة الجرائم الهمجية؛ وتطبيق سياسة الأرض المحروقة فأزالت (٥٠٠) قرية وبلدة عن الوجود، وهَجَّرت أهلها منها[2]؛ وقيل دمّرت (٥٣١) قرية وبلدة، وأحرقت أراضيها لتزيل أي أثر لأصحابها، لكي تقول للعالم ـ من بعد ـ: إن الأرض التي أقامت فيها تلك العصابات ليس فيها حيٌّ يدب عليها... وهي في كل ذلك تلغي مضمون القرار الأممي رقم (١٩٤) القاضي بعودة اللاجئين إلى ديارهم وأراضيهم...

ولعل هذا لا ينسينا المكر الصهيوني والتضليل الغربي ولا سيما بعد أن أصبحت الولايات المتحدة دولة عظمى؛ ودخلت بقوة في رسم سياسة المنطقة وحماية الكيان الصهيوني الوليد اللقيط، منذ أعلن (ترومان) الاعتراف به يوم نشوئه[3]. وكل منهما حمَّل الزعماء العرب مسؤولية النكبة التي حصلت للشعب الفلسطيني، وما تبعها من تهجير وحشي، ومذابح ارتكبت بحق أبنائه؛ لأن هؤلاء الزعماء رفضوا قرار التقسيم... وهذا وغيره ما تناوله الكاتب الصهيوني (تسفاي غباوي) في صحيفة (معاريف) الصهيونية يوم (٣٠/ ٤/ ٢٠١٢م). فقد مارس عملية تزوير علنية على الرغم من أن شهوداً

---

[1] انظر جريدة البعث ـ ص١٢ ـ العدد ١٤٧٨٨ ـ تاريخ (٢٠١٣/٥/١٣م).

[2] لو رجع أي واحد منا إلى الموسوعة الحرة حول القرى الفلسطينية المدمّرة لعرف تلك البلدات والقرى؛ وهي تغنينا عن إثباتها هنا... وانظر أيضاً كتابنا (المقاومة ١١١- ١١٢).

[3] انظر الموسوعة الفلسطينية ٢٠/٦ ـ ٣٦.

أحياء ما زالوا يتحدثون عن نكبتهم؛ وكذلك هم من عاصروها...

فالنكبة التي أحدثها قطاع الطرق وشذاذ الآفاق أوجدت كياناً إجرامياً لا يرتوي إلا من سفك دماء الأبرياء والمسالمين من النساء والشيوخ والأطفال وكل من لم يتحفز للقتال... ومضى الكيان وأربابه في الغرب يمارسون كل أساليب النفاق والخداع والمكر لإقامة وضع جديد يرسخ الاستيطان الصهيوني في فلسطين وابتلاع مدنها وقراها ومزارعها قطعة قطعة، ثم تهويدها، ما يعني ضياع فلسطين شيئاً فشيئاً. لهذا اعتُمدت سياسة الترغيب والترهيب... وارتكبت أفظع المجازر الجماعية بحق السكان، وقد زاد عددها على (٥٤٠) مجزرة قبيل النكبة وبعدها[١]، ودمرت الممتلكات والأراضي في صميم سياسة الأرض المحروقة كما حدث في مجزرة دير ياسين التي ارتكبها الصهاينة في الساعة الثانية بعد منتصف ليل (٩/ ٤/ ١٩٤٨م) وقضى فيها (٢٤٥) شهيداً، ومجزرة (الطنطورة) ـ الواقعة على الساحل جنوب مدينة (حيفا) بنحو (٢٣)كم ـ في (٢٢/٢٣/٥/١٩٤٨م) التي ارتكبتها الكتيبة الثالثة والثلاثون من عصابة (الهاغانا) بحق القرية... فالمذبحة الجماعية فيها ليست بأقل من سابقتها في (دير ياسين) و(كفر قاسم) بل ربما فاقتهما في الفظاعة، إذ دمّرت القرية بالكامل، وجرفت مزروعاتها، وقتل فيها (٢٣٠) شخصاً من الأبرياء شيباً وشباباً؛ أطفالاً ونساء... ومن ثم أنشئ أول مخيم للاجئين من الداخل شمال غرب غزة في (مخيم الشاطئ) عام (١٩٤٩م) الذي حوى (٢٢) ألف لاجئ، على حين يقطنه اليوم ما يزيد على (٨٠) ألفاً تراصت بيوته كما تراصت خيامه من قبل... وكذا هي المخيمات في دول الجوار سورية ولبنان والأردن، لا معونة للفارين الخائفين المذعورين الجائعين إلا ما تقدمه (وكالة غوث وتشغيل اللاجئين ـ الأونروا) من مساعدات لا تتناسب

---

[١] انظر جريدة البعث ـ ص ١٥ ـ العدد ١٤٥٢٨ ـ دمشق ـ الثلاثاء ١٥/٥/٢٠١٢م ـ مقال (نكبة فلسطين، أربعة وستون عاماً) ـ فقد ذكر فيه الدكتور معن منيف سليمان عدداً من المجازر وغير ذلك مما يدل على سياسة التهويد. وقد ألف الدكتور إبراهيم جابر كتاباً بثلاثة أجزاء ضمت رواية الصهيوني قبل النكبة وبعدها وعنوانه (جرح النكبة) وانظر كفاح عرب فلسطين ٨٥ ـ ١٠٣.

والوضع المأساوي لهم..[1]) ولغيرهم من اللاجئين الموزعين على (٥٩) مخيماً رئيسياً في دول العالم بما فيها الدول السابقة. وقد عبَّر عن مثل ذلك الشاعر بدوي الجبل في قوله:[2]

أسلمَ القدس مَنْ يحجُّ إلى القدس ... ويتلو الإنجيل ورْداً فوردا

مدن القدس كالعذارى سبوها ... وأرادوا لكل عذراء وَغْدا

غَيْرةَ اللّه!! أين قومي؛ وعهدي ... بهم ينَهدّون للشر نَهْدا

فالصهاينة دمَّروا الحياة، وخَرّبوا القرى والمدن؛ وعبثوا بالمقدسات ودنسوها... لقد سلبوا مهابة بيت لحم، وجَلال بيت المقدس فراح الأدباء يبكون ضياع فلسطين والقدس، وقد بيعت القضية برمتها في سوق النخاسة.

ولابأس أن نعيد على مسامع المتلقي سرد جريمة عصابتي (شتيرن) و(الأرغون) في دير ياسين إذ دخل أفراد العصابتين فقتلوا كل من رأوه من أهلها أطفالاً ونساءً وشيوخاً، وأحرقوا جثث العديد منهم وألقوها في العراء لبثِّ الرعب في النفوس؛ وهجّروا عدداً يسيراً منهم ليحدّثوا الآخرين بما شهدوه وسمعوه...

فالصهاينة أثاروا الرعب في قلوب السكان لتهجيرهم من بيوتهم فكانت مكبرات الصوت ترتفع بالنداء الآتي: "ما لم تغادروا دياركم فإن مصير دير ياسين سوف يكون مصيركم". وبمعنى آخر جرت عملية تهجير (ترانسفير) منهجية وقسرية، إذ كانت نسبة المهجّرين من الفلسطينيين (٧٣٪) بسبب الأفعال الإجرامية لعصابات الصهاينة؛ وهي أفعال أثارت الرعب والفزع في قلوب أولئك الآمنين كما أكدته الوثائق الصهيونية لنكبة (١٩٤٨م) قبل غيرها... ولا شيء أدل عليه مما قاله مدير دائرة الاستيطان في الوكالة اليهودية في عام النكبة (رعنان ويتز)، ومنه: (إنني حرثت فلسطين وحوّلتها

---

[1] انظر مجلة العودة ـ ص ٣٤ ـ العدد ٥٦.

[2] انظر ديوان بدوي الجبل ٣٢.

إلى أرض مستوية بأمر هدم وإزالة أكثر من (٣٠٠) قرية فلسطينية من النقب حتى الجليل" كما ذكرته صحيفة (جيروزاليم بوست) الصهيونية في (١٩٩٧/٣/٧م)[1]. وكان الأدب يواكب ذلك كله ويتحدث عن الجرائم الصهيونية كما نجده في قول الشاعر توفيق زياد (١٩٢٩ ـ ١٩٩٤م)، ومنه:[2]

سأحفر قصتي وفصول مأساتي

وآهاتي

على بيارتي وقبور أمواتي

❖❖

سأحفر رقم كلّ قسيمةٍ

من أرضنا سُلبت

وموقع قريتي وحدودها

وبيوت أهليها التي نُسفتْ

وأشجاري التي اقتُلعتْ

وكلَّ شتيمة صُبَّت على راسي

وأحفر (كفر قاسم لست أنساها)

وأحفر (دير ياسين تُشَرِّشُ فيَّ ذكراها)

وأحفر (قد وصلنا قمة المأساة

لاكتنا ولكناها

ولكنَّا

وصلناها).

---

[1] انظر صحيفة البعث ـ ص١٠ ـ مقال مترجم (النكبة التي لا تنتهي أبداً) ـ العدد ١٤٥٤١ ـ دمشق ـ الأربعاء (٢٠١٢/٥/٣٠م).

[2] انظر أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ٩٣ ـ ٩٤.

وتأخذني قراءة النص إلى بنيته المعمارية من جهة الشكل والمضمون على السواء؛ فعلى صعيد الشكل فهو ينتمي إلى الحداثة التي أطلقت الخيال للشاعر كي يحرر المقاطع الشعرية من الروي الواحد والقافية المتماثلة؛ وإن التزم بروي ما في كل مقطع... وهو إذ يفعل ذلك لم يكن هذا عبثاً منه وإنما تعمّده ليوازي بينه وبين حركة الانفعال المعبر عن حالة الحزن العميق الناتج عن المآسي العديدة التي يعاني منها شعبه. فالدراسة البنيوية لهذا النص تستبطن الوعي الفكري النضالي للوظيفة التي يشتمل عليها.

وفي ضوء ما تقدم نرى أن مجزرة دير ياسين تعدّ تحوّلاً عظيماً في عملية اقتلاع الفلسطينيين من أرضهم؛لأن نفوس أبناء القرى الأخرى امتلأت بالخوف والرعب ـ مما سمعوه عن الأهوال التي ارتكبت فيها ـ فغادروها خوفاً على حياتهم كما حدث في قرية (إكسا)... وهذا وغيره مما وصل إلى أسماع أدباء العربية شرقاً وغرباً فبكوا ضياع فلسطين وربى القدس؛ وشرعوا يعززون الأمل بالغد الآتي لتحرير فلسطين كما نراه في شعره عمر أبو ريشة المولود في (عكا) بفلسطين عام (١٩١٨م) والمتوفى عام (١٩٩٠م)؛ ومنه قوله:[(١)]

يا عيدُكمْ في روابي القدس مَنْ كبرٍ — لَهَـا علـى الرفـرف العلـوي تعييـد

سـينجلي ليلنـا عـن فجـر مُعْـترك — ونحـن في فمـه المشـبوب تغريـد

ولعمر أبو ريشة قصائد عدة في الحديث عن ضياع فلسطين وترك القدس وبيت المقدس لمصيرهما المجهول، ومما قاله في قصيدته (حماة الضيم):[(٢)]

المجـد يخجـل أن يجيـل الطـرف في — مـا هـدّم الجبنـاء مـن أسـواره

هـل في روابـي القـدس كهـف عبـادة — تحنـو جوانبـه علـى أخبـاره

خُضِّبت الصليب على الرمال خُضَّب — بـدماء مـن نعمـوا بطيـب جـواره

[(١)] انظر ديوان عمر أبو ريشة ٩٣.

[(٢)] انظر ديوان عمر أبو ريشة ١٤، وانظر فيه ٧.

ولعل ما تقدم يدفعنا إلى التساؤل: إذا كان الظلم قد وقع على اليهود الأوربيين من قبل أبناء جلدتهم الذين أبادوا كثيراً منهم بما سموه (المحرقة) التي يتباكون دائماً لها[1] فهل أرادوا الانتقام لأنفسهم بارتكاب هذه المذابح البشعة بحق شعبنا البريء في فلسطين، والتي أشرنا إلى مثال واحد لها من شعر توفيق زياد؟!! إنه سؤال يبقى في ضمير البشرية وضمير الأمم المتحدة التي أنشأت بقرارها رقم (٣٠٢) هيئة للإغاثة أسمتها (وكالة غوث وتشغيل اللاجئين ـ الأونروا) كواحدة من مسوغات القرار (١٩٤) وتعويضاً لهم عن مأساتهم، اللهم إن لم يكن هذا التعويض بديلاً من حق العودة...

ثم إن مثل هذا النص يؤكد التشبث بالأرض والوجود والتضحية في سبيل الوطن؛ وتحدي اغتصاب أي شبر منه؛ فكل ذرة من ترابه مكونة من تراب ورجال وأشجار، فهو وجود تاريخي حيوي ممتد في الزمان والمكان... ما يجعل الشاعر يقاوم كل عتاة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني؛ ويصبر على الأوجاع المؤلمة؛ كما يقول محمود درويش؛ في ديوان (عاشق من فلسطين) ومما ورد فيه قوله[2]:

عيونكِ شوكة في القلب

توجعني.. وأعبدها

وأحميها من الريح

ثم إن أي ذكرى للنكبة بعد ذلك أخذت تعيد إلى الذاكرة جريمة حماية الغرب لدولة عنصرية استيطانية عدوانية على حساب شعب مظلوم مقهور وأرض ورثها منذ آلاف السنين وتاريخ عريق وراح يرسم لها البقاء والديمومة ويقدم لها كل عون ودعم اقتصادياً ومالياً وتقنياً وبالسلاح، ويوفر لها الغطاء الدبلوماسي والسياسي دون أن ننسى لحظة واحدة بأن دولة الكيان الصهيوني ما قامت إلا بضعف العرب. ويؤيد هذا الرأي ما قاله (ديفيد بن

---

[1] انظر الهولوكوست (حقيقتها والاستغلال الصهيوني لها) ـ ٤٩ ـ ٦٠.

[2] ديوان محمود درويش ص ٤١.

غوريون) مخاطباً عصابات الصهاينة المذكورة سابقاً والتي صارت أساس الجيش الصهيوني من بَعْدُ: "أهنئكم على قيام (إسرائيل)... لكن أحب أن أقول لكم... إن انتصاركم هذا لم يأت من قوتكم... إنما جاء من ضعف عدوكم". وكانت القوة العربية التي دخلت حرب عام (١٩٤٨م) مؤلفة من مجموعات تنتمي إلى سبعة جيوش مفككة لا تملك قيادة عسكرية مشتركة فضلاً عن أن معظم ضباطها من البريطانيين؛ وأسلحتها متخلفة أو فاسدة. ولعل المعركة غير المتكافئة بين جيش صهيوني مُدرَّب تعداده ٧٠ ألفاً وجيد التسليح وله قيادة واحدة، ومدعوم بتأييد دولي وبين جيش عربي لا يزيد على عشرة آلاف، وضعيف غير متماسك... نقول: لعل هذه المعركة جعلت ٧٧٪ من أرض فلسطين تصبح بيد الصَّهاينة..... ثم إن دولة الكيان الصهيوني تمكنت من إثبات وجودها أمنيا وعسكرياً وسياسياً، واقتصادياً... وأخذت تحقق رغبة الدوائر الغربية والصهيونية ـ وما زالت ـ في إعاقة تحقيق وحدة الأمة العربية؛ ومَنْع تنميتها السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية... أي إن الدولة الصهيونية أضحت رأس حربة لإحداث الهزات والنكبات والنكسات في المنطقة واستهداف القوى التحريرية والوطنية والقومية، ولا سيما حين أنتجت نكبات متعددة الأشكال كنكسة (٦/٥/ ١٩٦٧م).

ثم تناسل الوهم العربي في استيلاد الرعب خوفاً من حدوث هزائم أخرى؛ إذ كانت الهزيمة النفسية أعظم خطراً من آثار النكبة في داخل الأرض المحتلة وخارجها؛ لاسيما أن الدوائر الغربية والصهيونية شرعت تخطط لإعدام أحلام اللاجئين بالعودة وتوطينهم حيث رحلوا، وإغرائهم بالمال والأعمال... وقد تبنّت أمريكا منذ عام (١٩٥٤م) على لسان وزير خارجيتها آنذاك (جون فوستر دالاس) سياسة الاندماج في المجتمعات الجديدة للفلسطينيين، إذ قال: "إن المشكلة الفلسطينية سوف تحلُّ عندما يحل محل المنفيين أبناؤهم، لأنهم سوف يشعرون بارتباط بوطنهم"[1]، فالاستيطان الصهيوني يهدف إلى قتل

---

[1] انظر مجلة زهرة المدائن ـ ص٩ ـ العدد ٢٦ ـ دمشق ـ أيار ٢٠١٢م.

مفهوم حق العودة الفلسطيني وقتل حلم اللاجئين بالعودة إلى أراضيهم وبيوتهم... وبالمقابل ما زال المشروع الصهيوني يعمل على توطين هؤلاء اللاجئين حيث هم في منافيهم؛ علماً أن رئيسة وزراء الكيان الصهيوني السابقة (غولدا مائير) قد قالت في شأن الفلسطينيين ونكبتهم: "الكبار يموتون... والصغار ينسون؛ وتنتهي قضية فلسطين".

ثم إن الحكومات الصهيونية المتتابعة حاولت جاهدة استكمال محو الهوية الفلسطينية، وتخريب كل أثر تاريخي حضاري وعمراني يدل على الشعب الفلسطيني، أو تشويه ملامحه وتزويره إمعاناً في التضليل والتزييف ليظهر أثراً صهيونياً... وكذلك فعلت في عدد من أشكال التراث الفلسطيني في اللباس والطعام وغيرهما لقطع كل صلة للفلسطينيين بوطنهم، علماً أن كل الآثار وأشكال التراث أثبتت عدم وجود شيء منها يدل على الصهاينة اليهود...

إذاً نتج عن نكبة (١٩٤٨/٥/١٥م) مأساة إنسانية مورس فيها التطهير العرقي بحق العرب الفلسطينيين، مأساة دفعت قسماً من السكان إلى الفرار بحياتهم لا يحملون من أمتعة إلا الحزن والدموع والتعاسة والمرارة وهم يزدادون بعداً عن بيوتهم وأراضيهم ويجتازون الدروب إلى غزة ومصر، والضفة الغربية والأردن؛ وسورية ولبنان وغيرها من البلدان. وسواء حَلُّوا في الضفة الغربية وغزة من أرض فلسطين لعام (١٩٤٨م) أم ابتعدوا عنها إلى ديار المنافي في الأردن وسورية ومصر ولبنان شعروا بأن الاغتراب يقتلهم كما وجدناه في روايات غسان كنفاني، ولاسيما (رجال في الشمس) المنشورة عام (١٩٦٣م) بوصفها استكملت أغلب العناصر الفنية للرواية على الرغم من السرد الواقعي المباشر لعرض الأحداث، ولكنها كانت تحرض على الثورة والمقاومة؛ مثلها مثل رواية الشاعر سميح القاسم (إلى الجحيم أيها الليلك). فكل من الروايتين كانتا تبحثان عن الذات الفلسطينية المقاومة التي تنتشل

الشعب من آلامه ... وهو ما نراه في شعر سالم جبران:[1]

تَعْبر الشمسُ الحدود

دون أن يطلق في جبهتها النارَ الجنود

ويغني بلبل الدوح ضُحىً في طولكرم

ومساءً يتعشّى وينامْ

بسلامْ

مع أطيار كبوتسات اليهود



ويقول في قطعة أخرى له يخاطب صفد: [2]

غريب أنا يا صفد!!

وأنت غريبة!!

تقول البيوت: هلَا!!

ويأمرني ساكنوها: ابتعدْ!!

فالألم يكوي صدره لأن سكان داره صاروا من اليهود، بينما أهلها تشردوا في كل اتجاه...

ومن ثم حاولت دولة الكيان الصهيوني غسل أدمغة المهجرين في الشتات من حق العودة، وتشجيعهم على الاندماج في مجتمعاتهم، والتوطين حيث هم؛ فما كان لهم صار للمستوطنين الصهاينة الغرباء. ولكن اللاجئين ردُّوا على ذلك كله بالندم على الخروج من أرضهم، وبمزيد من البحث عن الذات الوطنية، فوجدوا أنفسهم يزدادون حنيناً إلى وطنهم ويتعلقون به، وغدت مفاتيح بيوتهم، وصكوك التملك وخيمة التشرد والبؤس تدفعهم إلى التشبث

---

(1) انظر أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٣٢ والبحيري ٨٠ ـ ٨١.

(2) انظر المرجع السابق ١٣٣.

بالوجود من أجل أن تتكحل عيونهم بمشاهدة أرضهم. وجهدوا في إسقاط كل تفاعلات النكبة بما فيه المصطلح الذي لا يذكرهم إلا بطردهم من أرضهم.

ثم غدا الأدب المقاوم بكل أجناسه، وبخاصة الشعر والقصة والرواية بنية فنية جميلة ذات محتوى ثقافي اجتماعي تاريخي، أي إنه بنية تتناول بفاعليةٍ الحدثَ التاريخي السياسي لشعب اقتلع من أرضه؛ وعوقب على فعل لم يرتكبه..ومن ثم صار الأدب موازياً للتاريخ وإن لم يشبهه في عملية التوثيق وسرد الأحاديث المأساوية التي جار فيها الزمن وأوروبا على الشعب الفلسطيني..وقد استطاع الأدب أن يحقق البيئة الافتراضية لحالة المقاومة الحرة من أجل فلسطين كل فلسطين؛ والاستمرار فيها بعيداً عن الإيديولوجيات والشعارات؛ وإن وقع بعض الأدباء في مطب السرد المكرر لأحداث غدت مشهورة... فإذا كان الأدب لغة الفن الجمالي فإنه من جهة الوظيفة ظل قادراً على تجسيد الواقع من حوله، موفراً له الظروف المناسبة للتمثيل...

فالأدب المقاوم في فلسطين وما حولها عبر عن حامل نضالي غير سكوني،وغير إنشائي ووصفي إذ كان بلغته الشفافة الجميلة يثير النفوس الجلامد من مرابضها ولاسيما في المراحل الأولى من عمر النكبة التي طبعت الأدب الفلسطيني بالطوابع الرومانسية...

ولهذا نقول: لمَّا كان أدب المقاومة مقتصراً على بيان وجوه المواجهة إبان الانتداب البريطاني، ووصف بطولة المناضلين والشهداء؛ ورسم صورة للآلام والمصائب التي أحدثها في النفوس؛ فقد بات أدب ما بعد النكبة أشد تركيزاً في وصف المصائب والآلام الناتجة عن اغتصاب الصهاينة لفلسطين، وتأريخ ارتكابهم للمجازر الهمجية بحق الشعب الفلسطيني في صورة مقابلة لكتابة التاريخ،وكذا كان في الحديث عن التهجير والخيام والمنفى وما يرتبط بها من مآسي الغربة والاغتراب في الشتات... أي إن أدب النكبة كان يتحول شيئاً فشيئاً في ملامحه ليقترب من شكل الأدب المقاوم؛ ما يعني أن خيمة اللجوء والحزن والشقاء والمرارة ستصبح خيمة للتوق الوطني وللصبر والتحدي

والصمود والمقاومة... وقد برز دور الطلائع المثقفة في المنافي حين استطاعوا "وضع أسس عريضة ـ وفي وقت قصير نسبياً ـ لأدب عربي يمكن وصفه بأدب المنفى أكثر مما ينطبق عليه وصف الأدب الفلسطيني أو أدب اللجوء؛ وكان الشعور بالذات هو الرائد في هذا المجال"[١].

ومن ثم بدأت تتعزز في نفوس اللاجئين شيئاً فشيئاً روح الثورة على الواقع المزري الذي فُرض عليهم، ولم يلبثوا أن أخذوا يسقطون كل دعوة أو فكرة تتحدث عن (الوطن المنفى) ويتحولون في أدبهم من أدب النكبة القائم على تصوير المعاناة، والمأساة الفلسطينية إلى أدب المقاومة بوصفه منظومة متكاملة[٢] للدفاع عن النفس والتصميم على العودة؛ وبوصفه مواجهة حقيقية لأدب الآخر الصهيوني الذي راح يشوه الحقائق كما انتهى إليه من ـ من قبلُ ـ غسان كنفاني[٣]. ويعد الشاعر عبد الكريم الكرمي من أبرز الشعراء الذين ألحوا على التبشير بالعودة، والحنين إلى فلسطين، والتعبير عن آلام الغربة كقوله[٤]:

شعريَ جسر يلتقي فوقه ... أهلي بما يحلو وما يشجن

يعبقُ شعري بشذا موطني ... لولاه لا يزكو ولا يحْسُن

يا وطني لا تأسَ إنا على ... عهدك مهما طالت الأزمن

تفنى الزعامات وأشباهها ... والخالدان الشعبُ والموطن

ثم إن قوة القصيدة برمتها آتية من هذه اللغة المتعلقة بالوطن وهي تموج بالأمل القادم من وراء الأفق؛ أملٍ بالنصر والعودة إلى فلسطين وإن تعرضت لنكبة لم تكن نتيجة للإرادة الشعبية، وقيم المجتمع العربي. فالشاعر يعزي

---

[١] أدب المقاومة في فلسطين المحتلة (١٨) وانظر فيه ١٧ ـ ٥٨.

[٢] انظر ملامح في الأدب المقاوم ٣٤، والموسوعة الفلسطينية ٤/٢٥ ـ ٢٦ و ٣١ ـ ٣٣.

[٣] انظر تفصيل ذلك في (أدب المقاومة في فلسطين المحتلة) ٦١ ـ ٩٠ ففيه ما يغني ويفيد.

[٤] مجلة العودة ـ ص٤٠.

نفسه عن ضياع وطنه وابتعاده عنه بتلك السياسة العاجزة التي تبنتها الزعامات العربية، ومن ثم يلقي باللائمة عليها، لأنها لم تحسن عَقْد حبل الدفاع عنها... لهذا كانت أبياته مملوءة بشجن رومانسي عالٍ؛ يفيض بمفارقات شتى...

وهذا ما نجده عن الشاعر حسن البحيري المولود في حيفا (١٩٢١م) والذي غنى لبلاده وحنَّ إليها حنين الولهى إلى أولادها فقال من قصيدته (حيفا في سواد العيون)[1]:

ما أشرقت عيناكِ إلا خانني	**بصبابتي صبري وحسن تجملي**
وتحسسَتْ كفاي من ألم الجوى	**سهماً مغارسُ نصله في مُقَلي**
فلقد رأيت بلحظ عينك إذ رنت	**والتيه يكحلها بميل تدلل**

فحسن البحيري يغني لفلسطين ولقدس الأقداس أجمل القصائد؛ فترابها تِبْر، وحصاها درٌّ، وصخرها ياقوت، وشجرها فضة، وثمرها ذهب... يعاهدها على الجهاد؛ ولا يبالي بالنكبات والخطوب والأعاصير وصروف الدهر[2]:

فغداً تكشف الليالي دُجاها	**وتُجلّي صبحاً وضيءَ المَسَافرْ**
وغداً نُرقص الزمان انتصاراً	**ونزف المنى بعرس البشائر**

وكذلك فاحت رائحة التشاؤم خوفاً من المجهول ولاسيما حين ازدادت حالة البؤس والشقاء في خيام اللجوء والمنافي؛ فما كان يملك الشعراء إلا الحنين إلى الفردوس المفقود تعويضاً عن حالتهم الراهنة كما نراه عند عبد

[1] البحيري ٤٩ و٨٤ ـ ٨٨ و٢٣٤ ـ ٢٤٢، مجلة العودة ـ ص٤٠.

[2] انظر لفلسطين أغني ١٢ ـ ١٥ وانظر فيه ٢٨ و٣٣.

الكريم الكرمي وسليم الحوت وهارون هاشم رشيد وتوفيق صايغ وآخرين غيرهم.. ولا شيء أدل عليه من قول يوسف الخطيب في خمسينيات القرن العشرين يخاطب فيه عندليباً مهاجراً من فلسطين، ومنه[1]:

أتراك مثلي يا رفيق تمر بالزمن

عَبْر الليالي السود والمحن

لا صاحب يرخي عليك غلالة الكفن

لو قَشَّة مما يرفُّ ببيدر البلد

خبأتها بين الجناح وخفقة الكبد

أم جئت مثلي بالحنين وسورة الكمد

وراح الشعراء ينشدون أهازيج العودة ويرددون البشرى بالنصر متخلين عن المساومة والعجز والخوف والحزن كما فعل هارون هاشم رشيد في قصيدته المشهورة (سنرجع يوماً إلى حيّنا)[2]. وحسن البحيري في قطعته (رايات الفداء)[3]:

وطني... وأمجادي على ثَغْر الزمان تبَسَّمُ

ولعودتي يوم عرس العلا يترنمُ

والثأر في صدري براكين اللهيب تُزمزمُ

قسماً برايات الفداء هفت إليك الأنجمُ

بترابك الطهريّ وهو على اليهود محرَّمُ

لن يستقروا فوق أرضك والعروق بها دمُ

ولعل معين بسيسو (١٩٣٠ ـ ١٩٨٤م) من أشهر الشعراء الثائرين المتمردين

---

[1] انظر الموسوعة الفلسطينية ٣١/٤ وانظر لفلسطين أغني ٦٧ و٧٧.

[2] انظر عائد إلى حيفا وأعمال أخرى ٣٠ والبحيري ٢٧٧.

[3] لفلسطين أغني ١١٠ وانظر فيه ١١٥ ـ ١٢٨ والبحيري ٣٧ و٤٨ والوطنية في شعر حسن البحيري ٢١٥ ـ ٢٢٣.

على العجز، وإن كان اقتلاعه من أرضه نتيجة من نتائج النكبة وهو القائل: "من غزة، أحمل ذكرى غجرية، أرضعت طفولتي ترياق الرحيل، ومن يومها وأنا ابن النار"[1].

ولمّا باغتته النكبة لم تكن لوعاتها لتكسره أو تثني عزيمته عن التضحية والفداء؛ فصرخ بأعلى صوته سنة (١٩٥٢م) بنشيد سمي (المعركة) ومنه قوله:[2]

أنـــا إن ســـقطت فخـــذ مكـــاني يـــا رفيقـــي في الكفـــاحْ

واحمـــل ســـلاحي لا يُخْفــك دمـــي يســـيل مـــن الســـلاح

وانظـــــر إلى شــــفتيَّ أطبقتـــا علــــى هــــوج الريـــاحْ

وانظـــــر إلى عـــــينيَّ أغمضــــتا علــــى نــــور الصـــباحْ

أنـــا لم أمـــت... أنـــا لم أزل أدعـــوك مـــن خلـــف الجـــراح

فالشاعر تشبث بالدعوة إلى المقاومة؛ وثبت على موقفه ولو أدى به الأمر إلى النفي من مكان إلى آخر أو إلى السجن وظل هذا دأبه إلى أن توفي في غرفة مغلقة بلندن عام (١٩٨٤م) نقل بعدها إلى القاهرة ودفن فيها؛ ولم تتكحل عيناه برؤية وطنه.

وفي هذا المقام لا يمكننا نسيان الشهيد الأديب غسان كنفاني (١٩٣٦ ـ ١٩٧٢م) وما تركه وراءه من إبداعات تتناول مآسي الشتات كما يتضح لكل من قرأ روايته (رجال في الشمس ـ ١٩٦٣م) أو قصته (عائد إلى حيفا ـ ١٩٦٩م) على سبيل المثال[3]... ففاجعة الغربة التي استفاق عليها الشعب الفلسطيني في

---

(١) وانظر جريدة الثورة ـ دمشق ـ ص ١٩ ـ العدد ١٤٥٦٦ (شاعر صرخة الحق... سأقاوم).

(٢) انظر الموسوعة العربية ٣٥/٤ وجريدة الثورة ـ دمشق ـ ص ١٩ ـ العدد ١٤٥٦٦ (شاعر صرخة الحق... سأقاوم).

(٣) انظر عائد إلى حيفا وأعمال أخرى ـ ٢٢ وما بعدها، وأدب المقاومة في فلسطين المحتلة ٧ ـ ٨.

الشتات لم تجعله يغرق في الأحزان، أو تكبّله اللوعة؛ وتحرق جسده الآهات وإنما انتفض عليها شيئاً فشيئاً حين استفاق على زبانية الشيطان من الصهاينة

وأما القسم الآخر فقد تشبث بالأرض لم يغادرها، مواجهاً الاعتقال الفردي والجماعي، والابتزاز والضغط والمساومة، والأذى الجسدي والنفسي؛ تمسك بأرضه لا يرضى عنها بديلاً، أياً كان ظلم الصهاينة كما قال ذات يوم توفيق زياد في قصيدته (المستحيل) ومنها:[1]

هنا على صدوركم باقون كالجدار

وفي حلوقكم

كقطعة الزجاج... كالصبار

وفي عيونكم

زوبعة من نار

أما محمود درويش فقد علمته ضربة المحتل كيف يمشي على جراحه من دون أن يَهتز إيمانه بانتصار وطنه إذ قال[2]:

هذه الأرض التي تمتص جلد الشهداء

تَعِدُ الصيف بقمح وكواكبْ

فاعبديها

نحن في أحشائها ملح ومَاءْ

وعلى أحضانها جرح... يحارب

... فالحكومة الصهيونية اعتمدت منهجاً استعمارياً استيطانياً متوحشاً لابتلاع الأرض، وتعذيب أهلها الذين بقوا في أجزاء منها... وقد أنشأت تلك الحكومة إثر ذلك السجون والمعتقلات ومراكز التوقيف، وقامت باعتقال الآلاف،ومارست على عدد منهم كل صنوف القهر، والتعذيب مثل العزل

---

(1) انظر أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ٩٨.

(2) انظر ديوان محمود درويش ١٦٧.

الانفرادي ومنع العناية الطبية والزيارات الخاصة مخالفة بذلك الماد ة الثالثة من اتفاقية جنيف الرابعة؛ والمادة الخامسة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والمادة الثالثة من الميثاق الأوروبي لحماية حقوق الإنسان الأساسية لعام (١٩٥٠م)[١] ولعل هذا ما عبَّر عنه الشاعر الفلسطيني (حنا أبو حنا ـ ١٩٢٧م) حين أرسل بطاقة ثائرة من سجنه في (الرملة ـ عام ١٩٥٨م) قال فيها:[٢]

خسئوا فما حبسوا نشيدي	**بل ألهبوا نار القصيد**
نارٌ تأجج لا تكبّلُ	**بالسلاسلِ والقيود**
نار جحيم للطغاة	**وزمرة العَسَفِ المَريد**

فهذا الجزء من القصيدة يثبت مدى الحزن الذي آلمه خلف القضبان من دون أن يقدر على مشاركة الأبطال معارك الشرف... ولكنه أبى إلا أن يكون شعره في تلك الساحة النضالية؛ جاعلاً من كل كلمة ناراً تحرق الأعداء الصهاينة الطغاة، ولن يستطيعوا حبسها لأنها ستنطلق في الآفاق ثائرة متمردة على الاحتلال الأسود...

وهذا شاهد يدل على أن المرحلة التي أعقبت النكبة كانت الأفظع في تاريخ الشعب الفلسطيني ... إذ أضحت جرحاً دامياً في النفس يجتاح نفس كل حر شريف وعقله؛ ويدعوه إلى التصدي لمآسي الاقتلاع/ والتهويد، والتعذيب، والاعتقال، والقتل... ولا نستغرب بعد الذي قلناه أن يقف محمود درويش في عام (١٩٦٤) مدافعاً عن انتمائه في مواجهة الكيان الذي صمم على محو الهوية العربية الفلسطينية فنظم قصيدته (بطاقة هوية) مخاطباً بها موظف وزارة الداخلية الصهيونية؛ ومنها:[٣]

---

[١] انظر مجلة العودة ـ ص ٣٢ ـ العدد ٥٦ ـ دمشق ـ أيار /مايو ٢٠١٢م.

[٢] انظر شعر المقاومة في النقد الأدبي في العالم العربي ـ (عادل الأسطة)/ الشابكة.

[٣] ديوان محمود درويش ٣٥ وانظر فيه ٢٠ و ٢٣ و ٢٥ و ٢٨ و ٣٢ و ٤١.

سجّل أنا عربي

ورقم بطاقتي خمسون ألف

وأولادي ثمانية، وتاسعهم سيأتي بعد صيف

فهل تغضب؟!

ويرد الصهاينة عليه بالاعتقال، ثم الإقامة الجبرية في منزله بوادي (النسناس)، ولم يلبث أن كتب قصيدة عنوانها (جندي يحلم بالزنابق البيضاء) وفيها يخاطب جندياً صهيونياً؛ منها:[1]

لم أفهم الأشياء

إلا كما يحسها... يشمها

يفهم - قال لي - إن الوطن

أن أحتسي قهوة أمي

أن أعود في المساء، سألته:

والأرض؛

قال: لا أعرفها

ولا أحس أنها جلدي ونبضي

وبهذا ينقض الشاعر محمود درويش (١٩٤١ - ٢٠٠٨/٨/١٢م) مفهوم الصهاينة حول ما أطلقوا عليه (الأرض الموعودة) فالجندي الصهيوني لم يعرف في يوم من الأيام أن الوطن يعادل الأرض التي غزاها وقاتل فيها لأنه يدرك في قرارة نفسه أنها ليست أرضه بيد أن الشاعر محمود درويش يعيش اغتراباً داخلياً وهو في قلب وطنه كما نراه في قصيدته المعروفة (إلى أمي) وغيرها[2]. فهو يرى أن سيادته وسيادة أرضه منقوصة؛ فأصحابها الأصليون غير قادرين على اتخاذ القرار السيادي بشأنها... ما دعاه إلى رفع صوته النضالي عالياً؛

---

(١) انظر ديوان محمود درويش ٩٠ وانظر فيه ٤٧ - ٤٨ و ٤٩.

(٢) انظر ديوان محمود درويش ٤٩ وانظر فيه ٤٧ - ٤٨.

وهو صوت مجبول بالحزن الاغترابي الذاتي والموضوعي ولاسيما حين وجد نفسه يتحرك في أرضه وسط قيود كثيرة، فضلاً عن أنه يراها تُقْضم جزءاً جزءاً من قبل الصهاينة، من دون أن يكون قادراً على فعل شيء... ولو تأملنا النص من جديد لتبين لنا أنه مشهد درامي مثير في تعبيره عن الانتماء إلى الهوية العربية، أياً كانت المباشرة التي يعبر عنها؛ أو النبرة الخطابية التي تتوافر فيه... بل إن تكرار هذه النبرة تبرز رؤيته الوطنية /القومية وموقفه من الآخر الصهيوني... فهو ينظر إليه نظرة ازدراء لأنه لا يحقق رغباته العدوانية إلا بقوةالسلاح. فالقصيدة تلتصق جوهرياً بالواقع النضالي الحيوي واليومي للشعب الفلسطيني في ظل الاحتلال الصهيوني الغاصب. ومن ثم فإذا كان الفلسطيني مقهوراً بالحديد والنار والغطرسة الصهيونية العنصرية فإن العربي في أرضه قادر على تحقيق التوازن النضالي في صميم الوجود الحيوي الفاعل والذي يرتفع عن عوامل الضعف والعجز... فالتفاعل النصي الذي يدمج بين ما هو واقعي وذاتي وطبيعي يخلق صيغه في ضوء مواجهة الواقع البائس المزنر بالتوحش والقتل... ولذلك تغدو قصيدة محمود درويش مواجهة حقيقية للذات وللموقف والحياة بوصفها دفاعاً حقيقياً يثبت جوهر الانتماء الوطني/ القومي الراقي؛ إنها بحق أدب الحياة وللحياة بكل صورها الفنية أياً كان حكم الآخرين عليها؛ ومن ثم هي الجزء الخالد في النفس التي ترددها على الدوام معلنة ابتهاجها بالهوية القومية.

وأياً ما يكن الأمر عنده فالأم والأرض والحبيبة، والأرض وجوه لماهية واحدة تتردد في أشعاره كما ترددت في أشعار غيره سواء في الداخل أم الخارج، وكذا حديثه عن شجرة الزيتون[(١)]. وإن كنا نأخذ عليه حديثه الذي أخذ مسارب أخرى تدعو إلى الشك في قصيدة (ريتا والبندقية)[(٢)].

وقد استشعر عدد من الشعراء العرب منذ وقت مبكر مثل علي محمود

---

(١) انظر ديوان محمود درويش ٨٨ و ٨٩

(٢) انظر المصدر السابق ٩٢ و ٩٩ ـ ١٠٥.

طه (١٩٠٢ ـ ١٩٤٥م)[١] وقيل: (١٩٤٩م) نكبة الشعب الفلسطيني، ومعاناته داخل الأرض المحتلة وخارجها وإن تنكّب عن جادتها عدد آخر. ولا شيء أدل عليه من شعر أحمد محرم (١٨٧٧ ـ ١٩٤٥م)الذي استطاع أن يرتفع فيه عن روح المباشرة والتقرير؛ إلى روح التمرد والثورة التي تتلفح بنار الوجد والحب، وقد دهم فلسطين خطب مدلهم لا ينقشع إلا بالكفاح والجهاد؛ ومنه:[٢]

لبيك يا وطن الجهاد ومرحبا ... لبيك من داعٍ أهاب وثوّبا

من ذا يرى دمه أعزَّ مكانةً ... من أن يُخَضَّب من فلسطين الرُّبا

وطن يعذَّب من الجحيم وأمة ... أعزز علينا أن تصاب وتنكبا

ومن ثم صار الأدب الفلسطيني المقاوم شعراً ونثراً[٣] بمضموناته المتنوعة يستدعي الرد على الأدب الصهيوني المعاكس، في الوقت الذي يفند المزاعم الصهيونية[٤]، ... وهذا يعني أن الأدب المقاوم بوصفه أدباً ملتزماً يحمل بجدارة كل ماهية الدفاع عن ثقافة الوطن وهويته، ويحرص على الدفاع عنها، ويغني ذاكرة الأجيال بروح الثورة والمقاومة.

فالشعب الفلسطيني بشيبه وشبابه؛ وأطفاله ونسائه خيَّب ظن المستوطنين الصهاينة، فأكد تمسكه بتاريخه وهويته وصمّم على حق العودة مقابل النسيان والتفريط والتواطؤ والاستسلام؛ ورفض الوطن البديل وصارت مفاتيح البيوت التي حملوها معهم وكذلك صكوك الملكية رمزاً لحق العودة إلى الوطن فلسطين كل فلسطين. ولعل ما قاله يوسف الخطيب في هذا المجال من أعظم الشواهد على ذلك، علماً أنّه دعا إلى المواجهة المسلحة لاستعادة حرية

---

(١) انظر علي محمود طه (شعر ودراسة) ـ ٧٤ ـ ٨١ و ٢٢٢ ـ ٢٢٣ و ٤٠٧ ـ ٤١١ و ٤٢٩ ـ ٤٣٦ و ٤٤٧ ـ ٤٥١.

(٢) انظر مجلة زهرة المدائن ٢١.

(٣) انظر ـ مثلاً ـ (دراسات في أدب النكبة (الرواية) ـ ١٣ ـ ٥٥.

(٤) توقف عند ذلك غسان كنفاني في كتابه (أدب المقاومة)، انظر فيه ٦١ ـ ٩٠.

وطنه، ومما قاله:[1]

لم نــزل نرقــب الخــلاص ولابــد	**ســـيأتي بعـــث لنـــا ونشـــور**
يــوم نمضــي إليــك أيهــا العــاتي	**ويـــوم الحســـاب يـــوم عســـير**
والعيـون الظمـاء للنـور في الكهف	**أفاقـــت وقـــد جلاهـــا النـــور**

وهذا كله يشي بتشكل وعي نضالي كبير لدى الفلسطينيين كافة ومنهم المبدعون؛ وبخاصة حين جعلوا حق العودة والتحرير حقاً تتوارثه الأجيال؛ حتى كبر الوطن الفلسطيني في نفوس اللاجئين الذين راحوا يسمون أبناءهم بأجزاء من أرضهم مثل (بيسان)[2]... أي إن الوعي بالذات كبر في النفوس ردّاً على مخططات اغتصاب فلسطين وتضييعها ولم يعد بحثاً عن الذات المشردة والمبعثرة...

٤ ـ المرحلة الرابعة: مرحلة النهوض و وعي الذات (١٩٦٥ ـ ٢٠٠٠م):

تعد هذه المرحلة ذات أهمية ملموسة على الصعيدين الداخلي والخارجي كونها مرحلة التحولات الكبرى في الرؤية والموقف والمشاعر فقد انقلب البحث عن الذات وعياً بها وبمصير الوطن الذي ينتمي أبناء الشعب الفلسطيني إليه سواء كانوا في الداخل أم الخارج...فضلاً عن الأحداث الكبرى التي شهدها الوطن العربي كما تمثلت بانطلاقة المقاومة الفلسطينية من خارج الأرض المحتلة في (١٩٦٥/١/١م) أو بهزيمة (١٩٦٧/٦/٥م) أو بحرب تشرين /أكتوبر ـ ١٩٧٣/١٠/٦م) أو بالاتفاقيات العربية الصهيونية التي غيرت وجه المنطقة (معاهدة كامب ديفيد ١٩٧٩م) واتفاقية (أوسلو ـ ١٩٩٣/٩/١٣م) ومعاهدة (وادي عَربة ـ ١٩٩٤/١٠/٢٦م)...

---

(١) ديوان يوسف الخطيب ٢٧.

(٢) انظر مجلة العودة ـ ص ٢٤ ـ مقال (كبار يموتون وصغار لا ينسون) و ص٢٦ ـ مقال (أم صالح... عندما يروي الأجداد قصة النكبة للأحفاد).

فهذه المرحلة جمعت بين أمرين متناقضين؛ الأول يتبنى شعار تحرير الأرض بالمقاومة والقوة، و(ما أُخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة) و(لا صوت يعلو على صوت المعركة)... والثاني يدعو إلى القبول بالأمر الواقع، وسياسة خذ وطالب؛ ولا قدرة للعرب على مواجهة أمريكا، وأن حرب (تشرين/أكتوبر ١٩٧٣م) آخر الحروب، ولابد من قيام سلام استراتيجي بين العرب والصهاينة على أساس الحل العادل والشامل، والتعايش المشترك...

وحدث بين الأمرين أو الاتجاهين صراع مستميت فما إن يذكر الثاني حتى ينهض الأول في وجهه... في إطار علاقة صدامية بين قادة كل منهما وأنصارهم، وبين الشعب العربي الذي كان أكثر ميلاً للأول، ومازال متمسكاً به نتيجة إخفاق الثاني؛ لأن الدوائر الغربية الأمريكية الصهيونية لم تنظر إلى حقوق الشعوب ودولها إلا بالمقدار الذي يحقق مصالحها، ويحفظ أمن الدولة الصهيونية؛ متجاهلة إرادة تلك الشعوب وسيادة دولها على مواردها... وقد أثبتت الأيام أن العرب دفعوا مزيداً من التنازلات في حقوقهم وأرضهم، وسيادتهم، فضلاً عن ثرواتهم التي سرقتها تلك الدوائر برضاهم أو كرهاً منهم وهم صاغرون... فما وفَّره دعاة الاستسلام والسلام والتطبيع لتلك الدوائر من الإذلال الصارخ للعرب شعوباً ودولاً لم يكن يخطر في بالها؛علماً أن أعداداً غير قليلين صاروا جزءاً من ظاهرة الفساد والإفساد، والخيانة والعمالة، وتمويل المشاريع الغربية /الصهيونية وكل ما تحتاجه سلطات الهيمنة على دول العالم، اللهَّم إذا تجاهلنا عمليات تمويل الحملات الانتخابية لهذا الرئيس الغربي أو ذاك كما حدث في فرنسا (ساركوزي) وإيطاليا (برلسكوني) ـ مثلاً ـ؛ علماً أن القضية الفلسطينية صارت في عالم الغيب، لا رصيد لها في الذهن الغربي ولا مؤيد يدعمها؛ على الرغم من الخطابات الجوفاء والثرثرات الفارغة التي نسمعها بين الفينة والأخرى من هذا المسؤول الغربي أو ذاك؛ وما هي إلا لذر الرماد في العيون، وإلهاء الجهلة والحمقى من المسؤولين العرب لتقديم مزيد من التنازلات في الأرض وغيرها... وحينما روَّج الغرب والأمريكان لمشروع الشرق الأوسط الجديد كثر الفراش العربي حوله، ونما تيار الاستسلام الذي تشبع بغاز أكسيد الكربون؛ وتلهى

بمقاهي الغرب من باريس إلى لندن وواشنطن؛ ولبس أقنعة الخداع والنفاق التي تلطخت بالدماء العربية البريئة...

ولا يمكن للمرء أن يتحدث عن كل الذين سقطوا في مستنقع الرذيلة والعمالة والانحراف والشذوذ من بعض المسؤولين العرب الذين يعانون أمراضاً شتى، وعللاً استعصت على العلاج حتى آل أمر فلسطين، وبقية القضايا العربية إلى ما يعرفه الجميع؛ والخاسر الوحيد هو الشعب العربي. ولم يبق لهذا الشعب إلا أن يتسلح بالإرادة الصلبة والهادئة؛ والوعي العالي لكل ما يخطط له ولأمته، ويتخذ من الصبر سلاحاً، ومن الثقافة والمبادرة إلى مقاومة مشاريع الهيمنة والاستسلام طريقاً لا يحيد عنها... ولا سيما أنه انتفض على تخلفه وعجزه، وقلقه وتردده مدعوماً ببعض القادة العرب الشرفاء، وأحرار العالم النبلاء فمضى إلى غايته عارفاً كيف يسير إليها، ولم يتخلف المبدعون والأدباء العظام عن أداء رسالتهم فشرعوا ينيرون له الطريق، وأكدوا صواب رؤيته؛ فوضعوا نتاجهم في خدمة قضاياه على الدوام وبخاصة إذا ادلهمّ به الخطب وحاقت به النكبات والآلام...

واستطاع الأدب المقاوم أن يعبر عن ذلك كله... فمخيمات الشتات لم تعد مكاناً للحزن والبؤس، وإنما غدت مكاناً لولادة الوعي بالذات الوطنية؛ وجوداً وهوية وتاريخاً واستنباتاً للتحدي والصمود، والبطولة والفداء من قلب اليأس والبؤس، والتمسك الصارم بحق العودة والتعويض، الذي كفله قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم (١٩٤) تاريخ (١٩٤٨/١٢/١١م) في دورتها الثالثة؛ وعدم جواز التنازل عنها من البحر إلى النهر، ثم صار الشعار (العودة حق وحتماً سنعود)[١]... وبمعنى آخر تغيرت حالة التشاؤم والقلق وأضحت نمطاً من التفاؤل الكبير بعد يأس طال العهد به... فحق العودة لم يعد مجرد شعار تلوكه الألسنة، وإنما صار ممارسة فدائية وتطلعاً إلى الاستقلال وحق تقرير المصير... ولم يعد مقبولاً من الصهاينة أن يدنسوا الأرض باستيطانهم؛ ويهوّدوا

---

[١] انظر مجلة العودة ـ ص ٢٤ ـ مقال (كبار يموتون وصغار لا ينسون) و ص٢٦ ـ مقال (أم صالح... عندما يروي الأجداد قصة النكبة للأحفاد).

التاريخ والثقافة والحياة بتزويرهم الوجه الحضاري الفلسطيني؛ أي إن الشعب الفلسطيني مسح عجزه من النفس، ودمعه من العين حين اقتحم جدار الضعف من الداخل والخارج وهدمه وتبنى خطط المقاومة لإسقاط مفاعيل النكبة، وما جرته بعد ذلك من نكسة للعرب في (١٩٦٧/٦/٥م) كما وجدناه عند توفيق زيّاد(١٩٢٩ ـ ١٩٩٤) الذي آلمه ما حلّ بالأمة نتيجة الهزيمة المرة في الخامس من حزيران لعام (١٩٦٧م)؛ ومما قاله في قصيدته (كلمات عن العدوان):[1]

إنكم تبنون لليوم، وإنا

لغدٍ نعلي البناء

إننا أعمق من بَحْرٍ وأعلى

من مصابيح السماء

إنَّ فينا نفساً

أطول من هذا المدى الممتد

في قلب الفناءْ.

أما سميح القاسم المولود سنة (١٩٢٩م) فقد ردَّ على نكسة حزيران بقصيدة تناول فيها روح الفداء والبطولة على لسان الشهداء وحثَّ الأحياء في الداخل على التشبث بالأرض والدفاع عنها بالغالي والرخيص وفي الخارج ألا يتراجعوا عن مبادئهم في دعم النضال الفلسطيني، وإعداد العدة لحرب تفصل بين الحق والباطل، ومنها:[2]

يا من ورائي

لا تخونوا موعدي

هذي شراييني

---

(١) انظر شعر المقاومة في النقد الأدبي/ مرجع سابق.

(٢) انظر شعر المقاومة في النقد الأدبي/ مرجع سابق.

خذوها وانسجوا منها

بيارق نسلنا المتمرد

وعلى الرغم من ذلك سقط الشعب الفلسطيني في فخ الجريمة الغربية الصهيونية المنهجية والمنظمة والعنصرية بُعيد النكبة ـ فندر أن تجد أسرة فلسطينية لم تنكب بفقد أحد أفرادها، أو تدمير منزلها ـ ثم سقط في مستنقع هزيمة (١٩٦٧م) وأوحاله وبخاصة حين كثر العملاء والخونة هنا وهناك؛ وازداد عدد المنافقين والمخادعين... فالشعب الفلسطيني الذي عانى من بطش الاحتلال البريطاني احتمل ما لم تحتمله الجبال على المستويين المادي والمعنوي.. ولم تلبث أمته أن وقعت في دوامة الصراع العربي الصهيوني بعد أن ابتليت بالنكبة المشؤومة... وزاد الطينَ بلَّةً تعرضها للعدوان الثلاثي على مصر سنة (١٩٥٦) ثم نكسة حزيران الأليمة. ولكن تلك المآسي زادتها إصراراً على مقارعة العدو المتغطرس فعملت جاهدة على استنهاض ذاتها الحضارية؛ والخروج من المتاهة التي كادت تسلب قدرتها... متسلحة بالصبر والعزيمة الجبارة؛ وجاعلة ثقافتها وأدبها في كل أجناسه أسلوباً من أساليب المقاومة[1].

فالأمة تشبثت بإرادة الحياة الحرة الكريمة ورفضت الاستكانة للعدو الصهيوني الذي جعل القتل طبعاً وجبلّة، وديدناً يتلذذ به من دون أن يجول بخاطره ندامة أو كآبة؛ وتبنَّى تشويه الحقائق سلوكاً صريحاً وموقفاً معلناً من دون تذمر أو خجل؛ والتزم بتضليل البشرية معتمداً تقنيات متطورة من دون أن يشعر بالتردد وتأنيب الضمير... ومن ثم قدَّم الشعب العربي عامة والفلسطيني خاصة ذاته في إهاب إرادة التحدي؛ وثقافة الحياة التي تأصلت في نماذج فنية وفكرية، وقد أخذت نزيل الغشاوة عن العيون الهائمة، وتظهر العنصرية الهمجية الشرسة للعدو وتفضح تسلطه العرقي الدموي؛ وتفند مزاعمه الدينية الكاذبة، وتميزه بالتطرف الديني ونزوعه العدواني إلى تحطيم الشعب الفلسطيني وطرده من وطنه بكل الوسائل البشعة والقذرة،

---

[1] انظر دراسات في أدب النكبة ٥٩ ـ ١٣٨.

ومن ثم تزوير التاريخ والهوية والثقافة وفق سياسة الاغتصاب والقهر... وإذا كان الفلسطيني قد عالج ذلك كله فإنه تناوله بروح عاطفية شديدة التمسك بالأرض والتاريخ والهوية... رافضاً حالة اللجوء والنفي رفضاً مطلقاً، وإصراره على العودة وتجاوز الواقع الأليم.

هكذا باتت ذكرى النكبة ونكساتها، وهزائمها التي تناسلت منها؛ محطات على درب الشعب الفلسطيني المناضل ولا سيما بعد انطلاق العمل الفدائي في (١٩٦٥/١/١م) وتصاعده حتى عُدّ شكلاً من أشكال التحرر الوطني. في هذا التاريخ صارت البندقية الشعبية المقاومة رفيقة للكلمة وأخفق الرهان الصهيوني حين ذهب إلى أن الفلسطينيين ثلاثة: واحد سيموت، وآخر سينسى، وثالث أحمق سيقتل عندما يقاوم الوجود الصهيوني. فالمقاومة الشعبية الفلسطينية خارج الأرض المحتلة تفجرت شعلة وضاءة تقوي عزيمة أصحاب الأرض للعودة، وتنبض بالشوق إليها وتشحذ هِمَّة من في الداخل لاستمرار مسيرة النضال على أرضهم، أرض الجبارين الأطهار... فهي أرض الرباط وأرض الأجداد؛ وإليها تشد الرحال، ونحوها تتجه البوصلة وهذا ما عبَّر عنه أبو سلمى (عبد الكريم الكرمي) (١٩٠٧ ـ ١٩٨٠م) بقوله الذي يفيض بالحزن والشجن، ومما قاله:[١]

تنادينى السفوح مخضبات ... وفي الآفاق آثار الخضاب

تناديني الشواطئ باكيات ... وفي سمع الزمان صدى انتحاب

تناديني الجداول شاردات ... تسير غريبة دون اغتراب

تناديني مدائنك اليتامى ... تناديني قراك مع القباب

ويسألني الرفاق ألا لقاء ... وهل من عودة بعد الغياب

أجل سنقبّل الترب المندى ... وفوق شفاهنا حُمْر الرِّغاب

---

[١] انظر مجلة العودة ـ ص ٤١.

غـداً سـنعود والأجيـال تصـغي	**إلى وقـــع الخطـــا عنـــد الإيـــاب**
نعـود مـع العواصـف داويـاتٍ	**مـــع الـــبرق المقـــدس والشـــهاب**
أجـل سـتعود آلاف الضــحايا	**ضــحايا الظلـم تفـتح كـل بـاب**

ومن ثم لم تستطع هزيمة حزيران (١٩٦٧/٦/٥م) على مرارتها أن تكسر الإرادة الشعبية الفلسطينية، وإرادة الشرفاء والأحرار من المبدعين والمثقفين والقادة، وفق ما عبر عنه أبو سلمى ونزار قباني[١] وغيرهما من الأدباء. فنزار تحوّل بعد النكسة تحولاً نوعياً إلى الاصطفاف جانب الشعب المقاوم الذي انتفض كالمارد، وشرع هو وأمثاله يعرّون الواقع العربي السياسي، ويصفون حالة التردي والقنوط التي سقط فيها الشعب العربي، ويعبر عن الهزيمة بمزيد من الحسرة ولا سيما حين سقط عدد من القادة في أتون الاستسلام والمساومة. لهذا كله لا أمل له بعد رحلة الضياع الكبرى إلا التمسك بالهوية والوجود إلا التفاؤل بالمستقبل والأطفال؛ فقال مخاطباً إياهم في قصيدته (هوامش على دفتر النكسة) ومنها: [٢]:

يا أيها الأطفال:

من المحيط إلى الخليج، أنتم سنابل الآمالْ

وأنتم الجيل الذي سيكسر الأغلال

ويقتل الأفيون في رؤوسنا

ويقتل الخيال...

وأنتم الجيل الذي سيهزم الهزيمة

وكانت قيادتا سورية ومصر قد خاضتا معاً حرب تشرين (١٩٧٣م) بمساندة العرب الشرفاء، وفيها انتزع المقاتل العربي القدرة على المبادرة وأعاد

انظر ملامح في الأدب المقاوم ٣٦ ـ ٣٩.

(٢) الأعمال الشعرية الكاملة مجلد٣.

الثقة إلى النفس العربية حين حقق أول نصر عسكري في التاريخ الحديث. وأكدت هذه الحرب أن حقّ العودة حق غير قابل للتصرف وفق القرار الأممي رقم (٣٢٣٦) لعام (١٩٧٤م) ولا يجوز التنازل عنه بصفة شخصية بوصفه حقاً جماعياً ثابتاً متجاوباً مع حق تقرير المصير الذي أكدته الأمم المتحدة لكل الشعوب لعام (١٩٤٦م) ثم خصت به الفلسطينيين عام (١٩٦٩م) وإلا فلماذا خاض العرب بحروبهم المتتابعة وضحوا بأبنائهم من أجل سيادتهم وقضيتهم المركزية؟!.

ولهذا كله فإن الأدب المقاوم استطاع اختراق الحصار السياسي والقمع الثقافي الذي مارسه الكيان الصهيوني على الشعب الفلسطيني في خمسينيات القرن العشرين وستينياته؛ وسجَّل صفحات نضالية ناصعة آنذاك. ويعد أدباء الأرض المحتلة البارزين في طليعة من مارس ذلك كمحمود درويش (١٩٤١ ـ ٢٠٠٨م) وتوفيق زياد (١٩٢٩ ـ ١٩٩٤م) وسميح القاسم (١٩٢٩م...). وعلى نحو ما وجدنا ذلك عند القصاص والروائيين مثل إميل توما وخليل بيدس ونجاتي صدقي وعلي كمال.... وغيرهم ممن أنجبهم الكفاح الوطني[1]، من دون أن نتغافل عن الأدباء المبدعين في المنافي ومخيمات اللجوء مثل غسان كنفاني وجبرا إبراهيم جبرا (١٩٣٠ ـ ١٩٩٤م)... ويوسف الخطيب (١٩٣١ ـ ٢٠١١م) ومعين بسيسو (١٩٣٠ ـ ١٩٨٤م) وتوفيق صايغ (١٩٢٣ ـ ١٩٧١م) وفدوى طوقان (١٩١٧ ـ ٢٠٠٣م)... فقصيدة (آهات أمام شباك التصاريح) لفدوى طوقان ـ مثلاً ـ تحدثت عن المنفى الإجباري، وما حدث فيه، وقصيدة (مع الغرباء) لهارون هاشم رشيد (١٩٢٧م) تجسدت قيمتها في البحث عن الذات الفلسطينية وتميزها من الآخر[2]... فهي شديدة الاتصال بما أحدثته سنوات الجهاد والكفاح ضد محتل صهيوني غاصب للأرض والثقافة... حاول محو الهوية الفلسطينية وتاريخها الحضاري ولكنه أخفق في مسعاه لأن المبدعين أيقظوا الوعي بذلك كله؛ وظلوا قادة مخلصين بالتمسك بفلسطين وجوداً وهوية

---

(١) انظر الموسوعة الفلسطينية ٤/ ١٢٩ ـ ١٩٠ و ٢٠٢ ـ ٢١١.

(٢) انظر الموسوعة الفلسطينية ٤/ ٣٣ ـ ٤٧ و ١٦٩ ودراسات في أدب النكبة ٥٩ ـ ١٣٨.

وثقافة وتاريخاً. ولم تكن الغربة في بلاد المنافي لتوقعهم في الضياع والبكاء على ما تركوه وراءهم؛ وإن كان بعضهم قد فعل ذلك؛...

وربما كان للمدّ الثوري في ستينيات القرن العشرين أثره البالغ في تنامي التضحية والفداء والمقاومة؛ وارتفاع حدة خطاب أدب المقاومة، وانتشاره في الآفاق، وإن ظل متسماً بنبرة الخطابية والحماسة الرومانسية في أنماطه؛ بما فيه الشعر الذي يتناول خطاب الشعراء وما ينبغي أن يكونوا عليه من التزام بقضيتهم، وفق قصيدة محمود درويش (قمر الشتاء)[1]. وكذلك كان الشعراء العرب أمثال الجواهري (١٨٩٩ ـ ١٩٩٧م) الذي رثى (صبحي ياسين) أحد الشهداء الفدائيين في قصيدته (الفداء والدم) الطويلة، وانتهى في رثائه إلى أن هذا الدم المبذول سيعيد فلسطين إلى أهلها، وسيضيء المستقبل مشعلاً على ظلام الهزائم، ومما قاله[2]:

جَلَّ الفداء فما ينفك مَأربُه ... لكل مستبسل أَعْيت مآربه

وبورك الدرب مسحوراً يتيه به ... نِكْسٌ ويحتضن الصنديد لاحبُه

ثم قال:

سيسافر الغد خَلّته شوائبه ... مثل الجمام انتفت عنه شوائبه

سَيُحفّز الجيلَ أجيال تسابقه ... كما تطاعن قِرْناً أو تضاربه

وحين يمد الباحث نظره إلى خارج الأرض المحتلة وإلى ما كتب بالنثر يجد أن المجموعة القصصية (سرير رقم٢) لغسان كنفاني، وغيرها من أعماله تعد صورة صارخة عن مأساة الشعب الفلسطيني؛ وقد تجلت فلسطين لديه بصورة الحبيبة التي اختطفها العدو الصهيوني منه... أو بصورة الأم التي يبكي عليها الأبناء، فمريم أخت حامد في رواية غسان (ما تبقى لكن ـ

---

(١) انظر المرجع السابق ٥٨.

(٢) ديوان الجواهري ٣٤٠/١ و٣٥٦.

١٩٦٦م) تبادل أخاها البكاء والشكوى في الخسارة الكبرى التي أصيبا بها بعد مغادرة فلسطين فلم يبق لهما إلا ممرٌّ أسود من الرمال... أما الساعة المعلقة على الجدار فكانت دقاتها أشبه بدقات عكاز لا تتوقف في خُطى الصحراء التي يبحث فيها أخوان تائهان عن أمهما... فهناك أمل يستمر بالطرق كل الوقت منبهاً على تجاوز العجز والتيه؛ ولا خلاص لهما إلا بالحصول على الحبيبة/ الأرض... ثم إن اللغة الشعرية الجميلة المحمولة على الأسئلة المثيرة للذهن - على واقعيتها - تزيد العطش إلى الأرض بمثل ما تؤجج الانفعال العاطفي.برومانسية مؤلمة. ولا شيء أدل على هذا من قوله: "لقد حملت لكم؟! ما تبقى لي؟!. حساب البقايا؛ حساب الخسارة، حساب الموت. ما تبقى لي في العالم كله ممر من الرمال السوداء، عبَّارة بين خسارتين؛ نفق مسدود من طرفيه.كله مؤجَّل، كله مؤجل..."

وتسجل الرواية حفراً في الذاكرة والوجود لمدينة الروائي (يافا) التي نقش اسمها في كل مكان وزمان؛ وجعلها ختمه الصغير في أوراقه الثبوتية، لم يبال بما يلاقيه في سبيلها، كما ثبت من المواجهة بينه وبين ذلك الجندي الصهيوني في تلك الصحراء التي عبرها نحو فلسطين... فلا غرابة بعد هذا أن يقوم العدو الصهيوني باغتياله مع مجموعة من المناضلين في بيروت، لأنهم كانوا شوكة في حلقه.

وإذا كانت رواية (ما تبقى لكم) تحمل مثل تلك الهموم الكبرى فإن روايته (عائد إلى حيفا) كانت رواية مثيرة في حديثها عن موضوع العودة، في الوقت الذي طرقت موضوعاً على غاية من الأهمية منذ وقت مبكر حين وقفت عند تهويد الإنسان الفلسطيني في ظل الاحتلال الصهيوني في ضوء السيطرة على الحياة والثقافة، والأرض والحجر والبشر، فضلاً عن مناقشتها لعملية التنشئة والتربية المبكرة للأطفال...

فالرواية تجسّد نمطاً رفيعاً من الوعي بالتمسك بالوطن، وعدم الخروج منه مهما كانت التضحيات عظيمة... ولهذا وجدناه يحاكم حالة الابتعاد عن التراب الفلسطيني، ويصدر حكمه الموضوعي بحق الذين تركوه وراءهم لقمة سائغة للصهاينة - فإذا كان (إميل حبيبي) فَضَّل الواقعية السياسية

وقبوله بالأمر الواقع؛ فتحدث عن فلسطين الهاربة من بين يديه كما هرب شبابه، ما جعله يدعو إلى المصالحة مع الكيان الغاصب فإن الأديب غسان كنفاني وأمثاله عاشوا تجربة التحرر الوطني في ذواتهم وحياتهم وحياة أبناء وطنهم مهما تعرضوا له من عذابات القهر والاحتلال... ثم إن المنطق الجوهري لمفهوم القيمة فرض على الشعب الفلسطيني أن يقاوم عوامل الإحباط والاضطراب، والرعب والخوف، واليأس والقنوط الذي يسيطر على النفس في أحيان كثيرة، وأن يستشعر الأمل والفرح بالغد الآتي... ولا يتنازل عن حقوقه - أياً كانت - من حق العودة إلى حق تقرير المصير؛ وإقامة الدولة المنشودة على الأرض الفلسطينية وعاصمتها القدس...

ولهذا كله لا نعجب من أن يصل الأدب الفلسطيني المقاوم إلى أمريكا اللاتينية ويؤثر في مبدعيها وأبنائها ليلاقي هوىً جارفاً في نفوسهم بوصفه يعبر عن مضامين يعاينون كثيراً منها.... فاستلهموه في قصائدهم وجعلوه مدرسة يتغذون من خصب تربتها المكافحة، ويعبرون عنها كأبنائها كما نجده على لسان الشاعر الكولومبي (داسيوس داثا) في قوله:[1]

شُرِّدوا من أوطانهم

فنذروا أنفسهم فدائيين فلسطينيين.

أما الشاعر الإسباني (أنطونيو مورينو) فقد قال في قصيدته (أغنية إلى فلسطين):

هَدئي روعك يا أم الشعوب[2]

يا فلسطين الحبيبة

لإلى الأمام صفاً واحداً

---

(1) فلسطين في الشعر الإسباني المعاصر للدكتور محمد الجعيدي، يوميات ثقافية بعنوان (فلسطين في الأدب الإسباني) - جامعة مدريد وجامعة سلمنكة - بالتعاون مع "اللجنة الدولية لحقوق اللغات والحوار) - ٩ -١١/ ٢٠٠٥/٣م.

(2) المرجع السابق.

أيها الفدائيون الرفاق

إلى الأمام والنصر لنا

شعوبنا سحقت

آباء وأصدقاء لنا قد استشهدوا

النضال قدرنا جميعاً

ثم اخترع الشعب الفلسطيني الحجر الوطني ـ **في انتفاضة الحجارة الأولى في شهر كانون الأول (١٩٨٧م) واستمرارها حتى عام (١٩٩١م)**[١] **ـ ليكون صَرْخة مدوية في الفضاء الإنساني**، وطريقاً للخلاص، وقنبلة تتفجر في إرث الحزن والذل والتحرر من مفاهيم النكبة وروحها، ومفاعيل الهزائم التي تبعتها محاولة الانتقال إلى مفهوم بناء الدولة الفلسطينية التي يطمحون إليها، ويرغبون في العيش تحت علمها ثم تبعتها انتفاضة أخرى كانت الأعظم في (٢٠٠٠/٩/٢٨م) يوم دنَّس أرئيل شارون حرمة المسجد الأقصى، هو وجنوده فثارت ثائرة الشعب الفلسطيني وهبَّ بانتفاضته التي عبَّر عدد كبير من المبدعين الفلسطينيين والعرب عن الحالة الجديدة التي أحدثتها هذه الانتفاضة في الحياة والمواقف والأدب والثقافة.. وتناولت أعمالهم الإبداعية القيم الروحية والبطولية بصور إيجابية رائعة، في صميم التفاؤل بالمستقبل وبنائه كما يريدون، من الشعر إلى الرواية والقصة القصيرة وغيرها[٢]؛ وقد أولاها الشاعر طلعت سقيرق عنايته الكبرى في كتابه (الشعر الفلسطيني المقاوم) فخصَّها بباب كامل (الانتفاضة وانعكاساتها)[٣] فأغنانا عن التفصيل به... ويمكن أن نشير إلى الشاعر الكويتي المعروف (أحمد السقاف ـ ١٩١٩ ـ ٢٠١٠م) الذي أنشد قصيدة لثورة الحجارة؛ جاء فيها:[٤]

---

(١) انظر الموسوعة الفلسطينية ٩٧٧/٦ ـ ١٠٤٨.

(٢) انظر الموسوعة الفلسطينية ١٣٦/٤ ـ ١٩٠.

(٣) انظر الشعر الفلسطيني المقاوم ٦٩ ـ ١٠٤.

(٤) معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين ١٨٦/١.

لـيس عنـدي كنايـة واسـتعارهْ	**فقريضـي مسـتلهم مـن حجـارَهْ**
هـؤلاء الصِّغَار قـد أيقظـوا الشعـ	**ـب وهـاجوا إبـاءه واقتـدراه**
وتنـادوا مـن أجـل صـوت فلسطيـ	**ـن فطـوبى لمـن يحـرِّر دارَهْ**
عُـزَّل أذهلـوا العـدوَّ ببـأسٍ	**يَعْربـيٍّ وغـارةٍ بعـد غـاره**
لم يخـافوا وكيـف يخشـى المنايـا	**مـن تحـدَّى الـردَّى ليطلـب ثـاره؟!**
كفروا بالسكوت واستعذبوا المو	**ت وأعطـوه ليلَـهْ ونهـاره**
ورمـوا خلفهـم شـعارات قـومٍ	**والأيـادي بالنصـر تُعلـي الإشـارَهْ**

وإذا كانت الأعمال الروائية والقصصية التي تناولت الانتفاضة قليلة ـ بالقياس إلى روايات أو قصص مراحل سابقة ـ فإنه يمكننا أن نشير إلى القاص الفلسطيني حسن حميد في مجموعته (قرنفل أحمر... لأجلها)؛ فقد أوقف قصصها القصيرة كلها على موضوعة الانتفاضة من (حنّاء... من نوع آخر؛ وفرار الطبيعة، وما بين صافرتين، وعنوان عبودة) إلى (ليلاً... قرب الجدار، ...وفي السجن... وقرنفل أحمر... لأجلها...). فقد أبداها بصورها وأفعالها، جاعلاً المرأة شخصية ذات مكانة خاصة في مواجهة العدو الصهيوني، وفي ضوء ما يجري لشعبنا الفلسطيني في حياته اليومية؛ من دون أن يهمل أدوار الرجل والطفل في كل أحوالهما وتصديهما لذلك العدو. وهذا لا ينسينا حديثه عن المكان بوصفه متغيراً جديداً في تطور مفهوم المقاومة؛ علماً أنه لم يهمل كل ما يتعلق بعتبات النص من الناحية الفنية، بما فيه غلاف المجموعة[1]. وفي هذا المجال لا ننسى الإشارة إلى أول رواية تناولت الانتفاضة (أحواله وأحوالنا) للروائي حافظ البرغوثي؛ ثم شهدنا عدداً من الروايات بعدها مثل (العربة والليل) لعبد الله تايه؛ على الرغم من أنها تدعو

---

[1] انظر (قرنفل أحمر... لأجلها) ـ فقد ضمت المجموعة ثلاثاً وعشرين قصة قصيرة أولها (حناء... من نوع آخر) وآخرها (النهاية).

إلى السلام عن طريق التفاوض، ومنهج المهاتما (غاندي)... علماً أن موضوعة السلام داخل الأرض المحتلة وخارجها كانت جزءاً من مضمون بعض قصص هذه المرحلة مثل قصة (بوابة السلام) لبشرى أبو شرار...وبهذا وغيره حضرت الشخصية الفلسطينية المتجددة في الانتفاضة في السرد القصصي والروائي بمثل ما حضرت في الإبداع داخل الأرض المحتلة وخارجها؛ ولدى أدباء فلسطين والبلاد العربية على السواء؛ وعلى نحو مماثل كانت الأشعار... فأشعار الانتفاضة "تواصلت مع الحدث المقاوم في الوطن المحتل، فصوَّرته ورسمت كل امتداداته من خلال فعل وحركة هذه الشخصية..."[١]. ويعد نزار قباني في طليعة الشعراء العرب الذين هتفوا لأطفال الحجارة ومجّدوا بطولاتهم...

ولم تتوقف تلك الانتفاضة إلا بمخادعة أمريكية حين أعلن جورج بوش الأب عن انعقاد مؤتمر مدريد (١٩٩٢) إثر حرب الخليج الثانية؛ ومَنَّى العرب آنذاك بحل عادل وشامل للقضية الفلسطينية، وبقية القضايا العربية المرتبطة بها.

وإذا كانت الدولة الصهيونية قد أنشئت برعاية أممية من المنظمة الدولية نتيجة الحماية الاستعمارية الأوربية؛ ثم الأمريكية والدولية فإنها نمت بضعف العرب، أو خيانة بعض الأنظمة الرسمية العربية الحريصة على الحكم والتجزئة. ولكن الشعب العربي عامة والفلسطيني خاصة أدرك أن الكيان الصهيوني ما ولغ في الدم العربي إلا نتيجة تمزق القرار العربي؛ وعدم قدرته على إدارة القتال معه... ما فرض على الشرفاء الأحرار من أبنائه أن يستلموا المبادرة لاستمرار المقاومة، واستنفار كل الطاقات لمقاومة كل أشكال التطبيع والمساومة والاستسلام للأمر الواقع... فالدوائر الغربية ولا سيما الأمريكية سعت جاهدة إلى إسقاط مفاعيل النكبة، وانتهاك الكرامة العربية حين خلطت الأوراق بين المقاومة والإرهاب، وزرعت الشكوك في النفوس من كل أنواع المقاومة... وأخذ الكيان الصهيوني يحظى بالاطمئنان

---

[١] الشعر الفلسطيني المقاوم ١٠٤.

والأمن والاستقرار لأن الخلاف انتقل إلى قلب الأمة العربية، وصار الصراع عربياً عربياً، وشرع بعض العرب يهنئ الصهاينة بقيام دولتهم؛ أي إنهم يهنئونهم بنكبتنا...

ولذلك جرّت الدوائر الغربية والصهيونية بعض أطراف عربية لعقد اتفاقيات مذلة أدت إلى انقسام فلسطيني ـ فلسطيني، وعربي ـ عربي في آن معاً، واستطاعت تحجيم العمل المقاوم إلى حدّ ما بعد أن سلبت الإدارة الأمريكية عقول عدد من العرب.... ابتداء باتفاقية (كامب ديفيد ـ ١٩٧٨م) وانتهاء باتفاقيتي (أوسلو) (١٩٩٣م) و(وادي عَرَبة) (١٩٩٤م).

وقد جرت مفاوضات سرية مع الصهاينة كما عرف الجميع ـ آنذاك ـ بين السلطة الفلسطينية والحكومة الصهيونية، لتنتهي بإعلان اتفاقية (أوسلو) بتاريخ (١٣/٩/١٩٩٣م) أُوقفت الانتفاضة بعدها؛ وأخذت تُبعد الفلسطينيين عن أحلامهم وأرضهم...

ومن ثم برز في هذه المرحلة **تياران متصارعان** تيار **مسالم مهادن مساوم** يجعل الاستسلام سلاحاً؛ ويتبنى مفهوم الواقعية السياسية مبدأ وغاية، ويقبل بكل ما يعطيه إياه المحتل الصهيوني الغاصب، وأعلن اليأس من الجهاد والمقاومة، وطفق يكيل التهم للمقاومين؛ وأَقلُّها أنهم مغامرون لا يقدرون التحولات السياسية والعسكرية المحلية والدولية حق قدرها؛ بيد أن المبدعين الأحرار والمثقفين المناضلين وقفوا يفندون ذلك كله كما وجدناه في قصيدة (المهرولون) لنزار قباني... **ومن هنا فالتيار الآخر ـ وهو تيار مقاوم صابر ـ رفض الاستسلام** وتزوير التاريخ؛ وجابه النفاق الدولي؛ وتمسك بخيار المقاومة لانتزاع حقوقه كاملة، وإسقاط فكر النكبة وثقافة الاستسلام والمهادنة والتخاذل والعمالة والتآمر... وقد أثبت قدرته على المواجهة بكل صنوفها. فطرد من نفسه عوامل الذهول والوله في الشتات؛ ومزَّق مفهوم تسييد الخيمة، وحياة اللجوء، وطفق يحتفل بيوم الأرض في كل عام (٣/٣٠) وبيوم الأسير في (٤/١٧) ويوم النكبة ويجعل ذلك مبدأ للعودة والنضال بمثل ما يصر على أن الأدب المقاوم يشكل رافعة كبرى لثقافة المقاومة؛ والثقافة الوطنية بما يجسده من رسالة سامية في وجه العبث الصهيوني وتوحشه..

وبناء عليه لم يعد مفهوم النكبة أو النكسة تباكياً على الفردوس المفقود وحديثاً رومانسياً مؤلماً عن المنافي والخيام؛ وإنما أصبح رؤية نضالية فكرية وثقافية؛ أدبية وإعلامية سياسية واقتصادية... رؤية تهدف إلى مواجهة الاحتلال ومقاومته قولاً وفعلاً لتحقيق الحرية والاستقلال... وبخاصة بعد انطلاق المقاومة، وحرب تشرين التي عدت أول حرب تخترق تحصينات العدو وتصيبه بآلام شديدة.

فذكرى النكبة غدت نهراً متدفقاً بالصمود والتصدي لكل عناصر اليأس الإحباط... وروحاً للنهوض من تحت الرماد؛ ورفضاً للتشرد والنفي والبؤس... فلا صلح ولا استسلام بل صبر على البلوى وتصميم على تحرير الأرض والإنسان والتمسك بإقامة الدولة وعاصمتها القدس وحق العودة إلى كامل التراب الفلسطيني وعدم إضاعته أو نسيانه كما كان الصهاينة يعتقدون أو يزعمون ما يشير إلى أن الشعب العربي لم يقع في شرك الأساطير الغربية والخرافات الصهيونية ودعاواها الزائفة، وما نسجته المخيلة الكاذبة لمزوري التاريخ مثل (أرض الميعاد) و(شعب الله المختار)... فلا بد أن يعود ما يزيد على خمسة ملايين لاجئ إلى وطنهم... ولعل هذا يثبت أن قضية فلسطين قضية حيَّة في العقول والنفوس؛ ولم تضع في دهاليز اليأس؛ وأنفاق السياسة والخداع الدولي، ومآسي عمليات التطبيع، واتفاقيات الذل والعار.

٥- المرحلة الخامسة: مرحلة التحدي والمقاومة المتجددة (٢٠٠٠ - ...):

إن إحياء ذكرى النكبة كل عام منذ سنة (٢٠٠٠م) أكَّد حضورها الجوهري على المستوى الوطني والقومي والدولي؛ في الوقت الذي أصبحت فيه منطلقاً تاريخياً لتأكيد الحقوق الضائعة واستعادتها بكل جرأة وثبات وقوة؛ بعيداً عن الحالة الرومانسية، ما يثبت أن صبر الشعب العربي عامة والفلسطيني خاصة قد حقق إرادة البقاء والتشبث بحقوقه حين حَوَّل الحلم إلى طريق نضالي للحصول عليها؛ وأبرزها حق العودة وحق تقرير المصير وحق إقامة دولته الحرة والمستقلة وعاصمتها القدس. فهي حقوق غير قابلة للتفاوض أو التنازل أو التصرف أو الطمس أو التبديل والتغيير والتحريف.. إنها حقوق ثابتة على الصعيد الفردي والجمعي لا تتبدل بتبدل الأزمان وتعاقب الأجيال...

وقد ساعده في ذلك وعيه بذاته ووجوده؛ وانتصارات المقاومة العربية في لبنان عام (٢٠٠٠م) و (٢٠٠٦م) ودعمها تغيرات المشهد الدولي منذ (٢٠٠١/٩/١١م)، وعدم قدرة الإمبريالية على فرض هيمنتها بصورة مطلقة وإن غزت البلدان والشعوب كما هو عليه احتلال القوات الأمريكية للعراق (٢٠٠٣م). فقد اتضح لنا من المواقف الدولية وتسيير القوافل من أماكن عدة في الكرة الأرضية إلى غزة وغيرها أن العالم أخذ يرفض سيطرة القطب الأمريكي الأحادي عليه، وهي سيطرة اتخذت أنماطاً وهيئات جذابة عدة مثل (العولمة) التي أضحت تقابل (الأَمْركة)... فالعولمة حملت إلى العالم في تضاعيفها سموماً قاتلة على الرغم من الفوائد السريعة التي قدمتها له كما تجسدت في الثورة العلمية والتقنية والإعلامية، حين غدا العالم كله قرية واحدة... وإذا كانت قدّمت مثل هذه الإنجازات فإنها جعلت هذا العالم سوقاً لإنتاجاتها المتنوعة، بعد أن حطمت أي منافسة لها في البلاد النامية... أما في البلاد العربية فقد أمعنت في بث الفتنة بين مكوناتها الاجتماعية والدينية والعرقية، وعملت على تأجيج نار العداوة فيما بينها، فآلت الأحوال إلى نكبات مأساوية أعظم ألماً من نكبة (١٩٤٨م)... وفي فلسطين قبل غيرها عجزت الفصائل المقاومة عن إيجاد قاسم مشترك للالتقاء عليه، على الرغم من وجود الهيكل الجامع (منظمة التحرير الفلسطينية)...

ثم سقطت الأصباغ الخادعة عن وجه العولمة /الأمركة حينما برزت مدافعة عن دولة الاستيطان الصهيوني في المحافل الدولية، وفي مساندتها بالسلاح والعتاد والمال كلما تعطشت لدماء الشعب الفلسطيني، وراحت توهم العرب بأن المفاوضات ستجلب لهم حقوقهم؛ بينما كانوا يبتعدون مع كل جولة أكثر فأكثر عنها... وهذا كله يثبت أن احتفالنا بالنكبة كل عام يؤكد استمرار هذه المأساة الكبرى... وبخاصة حين أشعرت العالم بالعجز عن مواجهة الجريمة الإنسانية التي يرتكبها الصهاينة بحق فلسطين؛ في وقتٍ أشعرت العرب بأن فلسطين باقية في الأذهان ولن تضيع في زواريب السياسة والنفاق الغربي والعربي... ولعل من آخر مجريات الأمور ما تقوم به إدارة الرئيس الأمريكي (باراك أوباما) من تدشين ما يعرف بالدولة اليهودية في

زمن الربيع العربي الرديء؛ وكان أوباما الذي زار دولة الكيان في (٢٠١٣/٣/٢١م) قد انخرط في تأييد قيام الدولة اليهودية، معترفاً بجوهر الإيديولوجيا الصهيونية التي تعمل جاهدة على إلقاء قرار التقسيم رقم (١٨١) من ذاكرة الأجيال ومن ثم إلغاء حَلّ الدولتين الذي طرحه بعض المسؤولين الصهاينة وفق قرار التقسيم نفسه؛ مع أخذ العلم أن الدولة اليهودية قبل قرار التقسيم هي غيرها في ماهية الدولة اليهودية بعد عام النكبة؛ ثم هي غير الدولة المطلوبة اليوم من قبل الصهاينة الذين يريدونها خالصة لهم، ولمن هم خارجها بوصفها الحل القومي لكل من يدين باليهودية أينما كانوا في العالم. وفي هذا السياق وجدنا الرئيس الأمريكي يبارك مشروع إقامة الدولة اليهودية الذي يناقشه الكنيست الصهيوني ليقره في النهاية...

وطالما كان يردد في خطابات ولايته الأولى وبداية الثانية أراءه المؤيدة لإقامة الدولة اليهودية، على أن تكون القدس مدينة لليهود والمسلمين والمسيحيين، متجاوزاً كونها عربية... ومتجاوزاً المآسي التي أوقعها الصهاينة بالشعب الفلسطيني... في الوقت الذي مازال يرفض حقّ عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم... على حين يمارس ضغوطاً مستمرة على بعض الدول العربية للاعتراف بيهودية الدولة الصهيونية... ولا مراء بعد هذا أن يناقش الكنيست الصهيوني مشروع قرار يهودية الدولة وعاصمتها القدس محاولاً إقراره؛ وقد صُوِّت عليه فرجحت كفته نتيجة تحالف أصوات اليمين القومي واليمين الديني من الليكود وإسرائيل بيتنا (٣١ مقعداً) والبيت اليهودي (١٢ مقعداً)...

ففي ظل الديمقراطية التي تدعمها أمريكا وتحرص عليها في زمن الربيع العربي الدامي ما تزال دولة الكيان الصهيوني تغذّي روح الغطرسة والعنصرية لدى الصهاينة؛ فتعزز لديهم مفاهيم القوة، واغتصاب الأرض، والاحتفال بالدم العربي المسفوح على قارعة الطريق، وتطلق حملة تضليل وتشويه بحق الشعب الفلسطيني في صميم ممارسة سياسة التنكيل والتهجير، فضلاً عن إبراز رفض هذا الشعب لمبدأ السلام أو القبول به.... فهي تجهز على ما تبقى من أرض فلسطينية، وتمعن في ممارسة تهويد المقدسات الإسلامية والمسيحية؛

وكل تراث فلسطيني... فهي تدعو إلى التفاوض بينما يد جنودها على الزناد لإطلاق آلة الفتك على كل من يخطو خطوة نحو السلام... فهي تحتفل بقرارات الشرعية الدولية التي تحقق لها أطماعها؛ وتنقض على كل قرار يخالف مصالحها ووجودها العنصري الاستيطاني... إنها مصممة على أن تضيع فلسطين بالكامل، وتتفتت المنطقة إلى كانتونات طائفية وعرقية ومذهبية... ولا يستحي قادتها وقادة الدوائر الصهيو ـ أمريكية والغربية من الإعلان ليل نهار عن التبجج بتأييد الشعوب لنيل حريتها من الأنظمة الاستبدادية... زاعمين أنهم يعملون على إشاعة الحرية والديمقراطية ـ وهم كاذبون... وما يدحض مزاعمهم المهترئة والمفضوحة تبنيهم لسياسة الفوضى الخلاَّقة التي تحقق لهم مصالحهم على حساب الشعوب؛ وهم ـ أيضاً ـ أحرص من ذلك على أمن دولة الكيان الصهيوني التي تعدّ رأس حربة لمشروع الهيمنة الأمريكية الغربية الساعي إلى تنفيذ الأجندة الصهيونية في تمزيق المنطقة برمتها[1]. ويؤيدنا في هذا التصور تلك التصرفات الخفية التي يقوم بها بعض المسؤولين الأمريكيين السابقين والحاليين... وقد عرفنا ـ من قبلُ ـ ما كانت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة (كوندا ليزا رايس) تعنيه من مفهوم (الشرق الأوسط الجديد) إذ تبين لجميع المنصفين أنه يهدف إلى إعادة تشكيل المنطقة بعد تفتيت بنيتها الاجتماعية/ الدينية الرثة؛ تلقائياً ومن داخل هذه البنية القابلة للعبث بها... وقد نجحت سياسة الفوضى الخلاّقة بما نفذته ـ حتى الآن ـ وبخاصة حين استندت إلى رؤى وزير الدفاع الأمريكي الأسبق (دونالد رامسفيلد) وأصدقائه الخلّص في مراكز البحث الأمريكي الاستراتيجي مثل (بول ولفوفيتز، وريتشارد بيرل).

ولذلك فكل ما يجري في المنطقة هو نتاج للمخططات التي وضعت لتمزيقها؛ والهيمنة عليها من قبل مراكز القرار الغربي الأمريكي، أما الإدارات المتعاقبة فما عليها إلا السهر على تنفيذها بالصورة الجيدة والمناسبة لكل قطر...

---

[1] انظر سورية (الاستهداف والمؤامرة) ـ ٣١ ـ ٣٧.

وساعدها على ذلك كله وجود أنظمة عربية رسمية توهمت ـ وما زالت ـ أن هناك سلاماً عادلاً وشاملاً يمكن أن تحققه لهم الدوائر الغربية/ الأمريكية الصهيونية مع دولة الكيان فمضوا في رسم الاتفاقات بعد معاهدة (كامب ديفيد ١٩٧٩م) واتفاقية (أوسلو ـ ١٩٩٣/٩/١٣م) ومعاهدة (وادي عربة ـ ١٩٩٤/١٠/٢٦م)[1]... ثم ها هوذا الرئيس محمود عباس والملك الأردني عبد الله الثاني يلتقيان في عمّان بالأردن ويجريان مباحثات تنتهي إلى اتفاق يوقعان عليه في (٢٠١٣/٣/٣١م) ويقران فيه حق رعاية الملك الأردني للمقدسات الإسلامية في مدينة القدس، ما يوحي بالتنازل عن مفهوم حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني وإقامة دولته على أرضه وعاصمتها مدينة القدس، وهو ما يخالف قرار إعلان الدولة الفلسطينية بعد فك الارتباط مع الأردن في (١٩٨٨/١١/١٥م).

إن تهويد مدينة القدس[2] والعبث بالمقدسات الإسلامية والمسيحية ماضٍ على قدم وساق، في الوقت الذي يقر فيه الزعيمان المذكوران بتوحيد القدس سياسياً وإدارياً وجغرافياً تحت مظلة الدولة الصهيونية وهذا كله يغلق الباب كاملاً أمام حق العودة...

فإذا كانت زيارة أوباما قد شكلت تحولاً خطيراً في تنفيذ المخطط الصهيوني لتهويد فلسطين بالكامل فإن ما أقدم عليه وفد الجامعة العربية لمفاوضة السيد الأمريكي في نيويورك كان أنكى من تلك الزيارة وكان قد انبثق عن قمة الدوحة في (٢٠١٣/٣/٢٦م) برئاسة وزير الخارجية القطري (حمد بن جاسم آل ثاني). ورأى الوفد إجراء تعديلات جوهرية على مبادرة السلام العربية لعام (٢٠٠٢م) وفق المبادرة الأردنية الجديدة المقدمة في (أيار ٢٠١٣م). على أن تتم على مراحل؛ **الأولى** يجري التنازل عن أراضي عام (١٩٤٨م) بالكامل، مقابل وقف العدوان الصهيوني، والتخلي عن مدينة

---

[1] انظر مجلة الفكر السياسي ـ ص ٥٨ وما بعدها بشأن المعاهدة الأردنية ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق العدد ٤٢ ـ ٢٠١٢م.

[2] انظر من القدس إلى غزة ٤٦ ـ ٥٣ و ٥٩ ـ ٧٤.

القدس؛ ومبادلة أراضٍ محتلة عام (١٩٦٧م) بكتل استيطانية داخل الضفة الغربية؛ ثم الاعتراف بدولة يهودية، ما يعني التراجع عن قرار التقسيم (١٨١)... أما المرحلة **الثانية** فهي تحت عنوان (السلام مقابل السلام) من دون حديث عن الأرض أو الدولتين أي إلغاء حل الدولتين، ونسيان الأرض بالكامل...، ثم **الثالثة** للسلام الاقتصادي مقابل الحل النهائي، وإقامة سلطة فاقدة للسيادة ضمن كونفدرالية مع دولة الكيان الصهيوني أو مع الأردن، ثم الاعتراف العربي الكامل بالدولة اليهودية... [1]، وكل من يمعن القراءة في هذه التعديلات يجد أنها أشد خطورة من كل الوعود والتعهدات التي قدّمت للصهاينة، بما فيها وعد بلفور... لأن هذه التعديلات أتت من أبناء جلدتنا، الذين قدموا أرضاً للصهاينة ليست لهم، ونفضوا أيديهم من معادلة الصراع العربي/ الصهيوني؛ وأحدثوا نكبة جديدة إبّان ما يسمى بالربيع العربي وبمناسبة مرور (٦٥) عاماً على النكبة الأولى، في الوقت الذي قضت على كل الجهود التي بذلها أنصار القضية الفلسطينية وأهلها لمحو آثار النكبة القديمة حين أقرت بحق الصهاينة في أرض ليست لهم؛ وقبلت باقتلاع عرب (١٩٤٨م) من ديارهم، وتوطين اللاجئين حيث هم في ديار المنافي والشتات... إن ما يحدث اليوم من الجامعة العربية والمتسلطين عليها إنما هو نكبة جديدة، بوصفه نكبة فكرية وحضارية تحدث بأشكال متطورة وناعمة، وبأيد عربية موهومة بأن السلام مع العدو الصهيوني يمكن أن يتم...

وهذا كله يثبت أن العبث بالقضية الفلسطينية ما برح يتزايد؛ ويشكل تحديات خطيرة لأبناء العربية عامة ومبدعيها خاصة... فالأمر لم يعد متعلقاً بإزالة آثار نكسة (١٩٦٧م) في ضوء الثبات على نهج المقاومة وتعزيز إرادة الشعب الفلسطيني على الصمود والتحدي؛ ولا بالتخلص من آثار نكبة (١٩٤٨م) الممتدة حتى الساعة في كل شيء وإنما غدا متعلقاً بالوجود الوطني الحر والحيوي للشعب الفلسطيني وتطلعه إلى مواجهة أشكال الإلغاء

---

(١) تناولت وكالات الأنباء ووسائل الإعلام تلك المبادرة على نحو كبير، ورُفضت من الشعب العربي برمته، ومن قيادات الشعب الفلسطيني المناضلة، وكذلك رفضتها دول عدة شرقاً وغرباً، أما الإدارة الأمريكية فقد اشترطت الاعتراف بالدولة اليهودية أولاً للقبول بالمبادرة.

الجديدة، ومقاومة التنازلات المعيبة للضالعين في إسقاط حلم الشعب في إقامة دولته المستقلة بعد أن حقّق تقدماً ملموساً نحو ذلك في غير ما محفل دولي، ومنبر ثقافي، إذ استعاد المبادرة بكشف المخططات الصهيونية الماحقة لتهويد الحياة والأرض بعد ابتلاعها ولا سيما حين أقرت حكومة (نتن ياهو) يوم (الأحد ٢٠١٢/٦/١٧م) تشكيل لجنة وزارية لتنفيذ عمليات التهويد وسياسة الاستيطان، على حين مازال المستسلمون المرجفون يدعون إلى تبني التسويات السياسية مع العدو الصهيوني. فهذا العدو يعدُّ العدة لحرب واسعة مع العرب بهدف قَضْم مزيد من الأراضي؛ وتحقيق مبدأ الهيمنة والسيطرة؛ ويقوم بكل الإجراءات الكفيلة بذلك، وهناك من العرب من يسارع الخُطَى إلى مرضاته.[1]

إن ما يسمى بزمن الربيع العربي المضطرب، والمتردي بدأ يشكّل ضغطاً جديداً على الشعب الفلسطيني وراح ينهي كل طموحاته المنشودة والمشروعة بعد صبره الطويل وجراحاته الراعفة في داخل أراضي الضفة الغربية التي توزع فيها مستوطنات كثيرة يقطنها ربع مليون صهيوني؛ مع التذكير بأن سنة (٢٠١٢م) شهدت بناء منازل صهيونية عدة في (١٦٦) مستوطنة في الضفة الغربية[2]... أما في ديار المنافي والشتات.. فما زال اللاجئون[3] فيها يعانون من ضغوط كبرى، أولها مسألة التوطين... وعلى الرغم من هذا كله ظلّت جذوة نضال الشعب الفلسطيني متقدة في بذل التضحية والفداء لتحقيق أهدافه، ولا يجوز لأحد أن يغتال ذلك كله مهما كان جبروته وظلمه، علماً أن هذا الشعب طرد من نفسه وعقله كل قلق أو تردد أو خوف من جلاديه وعملائهم من الخونة والمنافقين... أياً كانت موجات القتل والعنف والتعذيب والتهجير والجوع شديدة وقاسية... فهذا الشعب يؤمن بأن الوضع العربي البائس لن يدوم، ولا بد من الصبر والصمود وتحدي المشاريع الاستسلامية، ولا سيما أن

---

(١) انظر (حالة حرب واحدة طويلة منذ ١٩٤٨) ـ مجلة إلى الأمام ـ ص ١٦ ـ ١٧ ـ العدد ٢٤١٩.

(٢) انظر مجلة إلى الأمام ص٢٧ ـ العدد ١٤٢٥ ـ دمشق ـ كانون الثاني ٢٠١٣م.

(٣) زاد عدد اللاجئين في المنافي وأرض الشتات على ستة ملايين بنهاية عام (٢٠١٢م).

موازين القوى في العالم آخذة في التغير لصالح الشعوب وسيادة الدول....ولا بد للجامعة العربية من إعادة النظر في بنيتها وسياستها لتصبح محققة لطموح الشعوب بدل أن تظل خادمة لأطماع الدوائر الغربية الصهيونية.... ولا بد لها من وضع صيغ جديدة تخدم قضايا المجتمع العربي وتحرص على مصالح دوله وسيادتها.... ولا سيما أن القضية الفلسطينية تشكل اليوم مرتكز القرار الدولي والتحكم بمواقف دول العالم....

إن المخاطر التي تعرض لها الشعب الفلسطيني منذ بداية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين تؤسس تهديداً حقيقياً له ولأبناء الأمة العربية وللبشرية عامة... فالجشع الصهيوني لا حدود له في الحقد القاتل الذي يأكل أكباد الصهاينة تجاه الشعب الفلسطيني... وهو حقد يرتبط بالطمع في الأرض العربية وفق مقولاته المزعومة عن أرض [إسرائيل] الكبرى، أي إن كل شيء مرشح للضياع إذا استمرت الأحداث في الوطن العربي على ما هي عليه، ولم يقم أبناء الأمة العربية شعوباً وقادة ومثقفين وأدباء بما يعزز الفعل المقاوم مستفيدين من يوم النكبة بوصفه حالة إحياء لتذكير المجتمع الدولي بواجبه تجاه الشعب الفلسطيني... فهذا المجتمع ما زال يتجاهل مأساة شعب فقد وطنه وأرضه وحريته... لذلك كله لا بد من وقفة ثائرة وقوية تدعمها قوى التحرر العالمي وكوادره القيادية لإنهاء العربدة الأمريكية والصهيونية الوقحة، والقضاء على الآثار الخطيرة الناجمة عنها... مستذكرين أن التاريخ لن يرحم الضعفاء والجبناء... ومن ثم فإن الأمة لن تقوم لها قائمة بغير القوة العسكرية والتقنية والمعرفية والإعلامية، وتنسيق الجهود المشتركة على الصعيدين الوطني والقومي... والحفاظ على الهوية والوجود والحرية لا يتحقق بغير التضحيات الجسيمة... وإلا سيصدق علينا قول نزار قباني (متى يعلنون وفاة العرب)... ولعل هذا كله مما تناوله الشاعر الفلسطيني مروان عبد الرحيم في قصيدته (يا ويلنا... هذا الربيع أتى...!!) ومنها:[1]

خرج الجميع إلى الجميع... عن الجميع

---

[1] انظر مجلة الهدف ـ ص ٤٦ ـ دمشق ـ العدد ١٤٦١ ـ تاريخ (١٥/٤/٢٠١٣م)

خرجوا إليهم... مثلما خرجوا عليهم
خرجوا إلى من يحميهمُ
كان الرصاص كما المطر
بين الرصاصة والرصاصة كانت تمرّ
الثالثة...
والناس تمشي نحو رابعة النهارْ
والموت يلقي في الجميع شباكهُ
يصطاد منهم.
....
خرج الجميع إلى الجميع... من الجميع
خرجوا ولم يدخل سواه...
هذا الكبير الساكن البيت الملوّن
بالبياض...
فكأن من ماتوا... ومن قتلوا...
ومن خرجوا...
رعاعٌ في رعاعٍ من رعاع.
....
يا ويلنا...
سيكون ملحٌ... كل هذا الموت...
والشهداء غابوا عن الشاشات
وانتظروا هناك على الرصيف المُرّ...
يا ويلنا...
هذا الربيع قد ابتدا...
ماذا يكون اللون في لغة الخريف، إذاً،

وقد حلت بنا تلك العواصف؟!!

يا ويلنا إن كان عشب الأرض في

هذا الربيع ملوناً بالأحمر القاني...

ليقطف زهره هذا الكبير...

يا ويلنا... يا ويلنا...

إن هذا النص دعوة حقيقية إلى انتفاضة ثائرة متمردة على الوضع العربي البائس، دعوة إلى قيام الشعب بمقاومة جماعية يفرضه عليه الواجب والحق والدين... فالمفاوضات ستظل ألعوبة بيد الصهاينة؛ وجثة اتفاقية (أوسلو) ستبقى محمولة على أيدي الصهاينة الملوثة بالدماء لتنفيذ مآربهم الكاملة في تهويد فلسطين التاريخية... لا بد للمخدوع من أبناء الشعب الفلسطيني خاصة والعربي عامة من أن يخرج من حالته الضبابية، أو الرمادية المؤلمة وأن يتدفق الدم العربي القاني في عروقه لإنقاذ وجوده، من دون أن يعوّل على الحكومات العربية بأي أمل... فهي تعيش في حالة موت سريري...

ولعل من أكثر ما يؤلم المبدعين ومثقفي هذه الأمة ما يرونه من عجز النظام العربي الرسمي أمام الإجراءات المتسارعة لتهويد الأرض والإنسان والثقافة؛ والتاريخ والجغرافية والعادات... فهم يستشعرون فَقْد فلسطين بكاملها، ولا يستطيعون فعل شيء إلا أنهم يصرخون في وجه هذه الحالة المزرية كما فعل الشاعر السوري جاك شماس الذي صرخ في قصيدة من ديوانه (الحب النبيل) قائلاً:[1]

أيهـوّد الأقصـى الحبيـب يهـود — وبنـو العروبـة في الخطـوب قعـود؟!!

والجـامع الأقصـى رهـين شـراذم — تلــهو وتعبــث بــالتقى وتســود

ماذا أسطّر؟! يا صلاح الدين قم — جثمـت علـى صـدر النخيـل قيـود

---

[1] ديوان الحب النبيل ص ١٣ ـ وخصَّ القدس بديوان كامل (عروس المدائن) نذكر من قصائده (القدس عروس المدائن) و(واقدساه) و(الجهاد المقدس) و(المسجد الأقصى).

قم يا صلاح الدين وابعث نخوة	**ليصـول في ساح الجهـاد أسـود**
وتؤوب للأقصى نضارة وجهه	**ويفيء في القدس الحبيب خلود**

ومن ثم فإنه يرى أن بؤس الواقع العربي والإسلامي يتعاظم ويزداد مرارة، ويرى ـ أيضاً ـ أن فلسطين دُفعت مهراً لهذا الواقع المتردي، وفق ما عبَّر عنه في قصيدته (القدس عروس المدائن) ومنها:[1]

يا أمة الإسلام ما جَدْوى امرئٍ	**خلع الوقار معفّراً بتراب**
يا قدس ماذا تستعيد بلاغتي	**والأهل طَغْم صوارمٍ وحراب**
ماذا تفيد عروبة بثرائها	**وضميرها رغم الغنى كسراب**

وراح الأدب المقاوم بكل أجناسه من الشعر إلى القصة والرواية والمسرحية[2]، وأدب الأطفال[3]... فضلاً عن النقد[4] والأفلام السينمائية مثل فيلم (الكلمة والبندقية) وفيلم (السكين) لخالد حمادة (١٩٧١م) المأخوذ عن رواية غسان كنفاني (ما تبقى لكم ـ) والتي كتبها عام ١٩٦٦م، و (المخدوعون لتوفيق صالح ١٩٧٢م) المأخوذ عن رواية غسان ـ أيضاً ـ (رجال في الشمس)[5] ... والمسلسلات التلفزيونية كالتغريبة الفلسطينية وما بثته القنوات حول شخصية الشاعر المقاوم (محمود درويش) ـ مثلاً ـ نقول: راح الأدب المقاوم بكل ذلك يشكّل الوعي الناضج بالوطن والهوية ويفند دعاوى الصهاينة ويكشف أكاذيبهم وخداعهم ونفاق العملاء للسيطرة على مقدرات الحياة والإمعان في سياسة التطهير العرقي للشعب الفلسطيني. وقد أثبت الأدب الذي

---

[1] ديوان عروس المدائن ٣٢.

[2] انظر الموسوعة الفلسطينية ٢١٧/٤ ـ ٢٣٧.

[3] انظر المرجع السابق ٢٤١/٤ ـ ٢٥١.

[4] انظر المرجع السابق ٣٤٥/٤ ـ ٤٢٣.

[5] انظر جريدة تشرين ص ١١ ـ العدد ١١١٣٩

تناول النكبة وكل ما يتصل بها، من قبلُ ومن بعدُ أنه جزء من ثقافة المقاومة، وعبر عن مكانة المبدعين شعراً ونثراً في بعث النهوض الوطني والقومي؛ وترسيخ الوعي النضالي بالهوية والوجود الحر... ومن هنا أضحى الأدب المقاوم مواجهة حقيقية لمزاعم الحركة الصهيونية وما يزعمه منظروها وأدباؤها لتمكين الصهاينة من الاستمرار في سرقة الأرض؛ وتهويد الثقافة؛ وخداع أبناء البشرية بتلك المزاعم... فالأدباء الصهاينة أَباحوا لأنفسهم تسويق أعظم تزوير للحقيقة في التاريخ حين أخذوا يستجهلون العقل البشري، فأخذوا ومجموع النُّخَب الصهيونية يحركون الشعور القومي لليهود، ويغذونهم بسرقة القدس وفلسطين، ويحرضونهم على العودة إليها، ويربطون بين مفهوم العودة إلى فلسطين وبين ظهور المسيح المنتظر بوصفه مسيحاً يهودياً...

وتعدُّ الشاعرة اليهودية الروسية/ الأمريكية (إيما لازا روسي ـ ١٨٤٩-١٨٨٧م) من أبرز الوجوه الممثلة للحركة الصهيونية بكل تطرفها. وقد هاجرت من روسيا مع موجة الهجرة اليهودية الثالثة في أوروبا إلى أمريكا، وفيها مارست تغذية ثقافية للصهاينة الذين شكَّلوا أول فرع للأشكناز هناك ونكتفي بهذه الإشارات للأدب الصهيوني لتعطي القارئ فكرة عن تطابق محتواه مع محتوى الحركة الصهيونية...

ولا يضيرنا أن نشير إلى بعض المجموعات القصصية والروايات التي عادت إلى أسلوب التوثيق التاريخي، واستدعاء أحداث النكبة وتجارب الكفاح المسلح في صميم المذهب الواقعي المندمج بالطبيعي؛ عاملة على تشكيل وعي الأجيال بها والتمسك بحق العودة والتحريض عليه... ولعل المجموعات القصصية الأخيرة التي أصدرها القاص عدنان كنفاني دليل على ذلك ومنها (وتطيّر العصافير ـ دار الطارق بدمشق ٢٠٠٥م) و (الهالوك ـ اتحاد الكتاب العرب بدمشق ـ ٢٠١٠م) و (قبيل طلقة الفجر ـ اتحاد الكتاب العرب بدمشق ـ ٢٠١١م). ومن منا ينسى رواية (غرباء) الصادرة عن مؤسسة الرؤى عام (٢٠٠٣م) للكاتب إبراهيم رجاء سلامة؟!. وهي رواية تتناول قصة شعب بكامله كان يعيش في بلاده غريباً ومنفياً، بائساً ومقهوراً... وهو يعرض ذلك كله من خلال بطلها (حامد) العاشق لامرأة شقية لا وطن لها ولا أم...ولا منقذ

لها سوى الحب والهيام... ومن ثم وجدا أن الكتابة تنقذهما معاً مما هما فيه... وكانت (وفاء) قد أحبت حامد المناضل والشاعر والذي ذاق مُرَّ السجن في زنزانات العدو الصهيوني لأنه حاولَ التسلل إلى وطنه فلسطين..ومن ثم تبدأ حكاية البطل في رسائل يرسلها إلى (وفاء) تخرجه مما هو فيه من الحزن واليأس... ويطمح من خلالها إلى خلاصٍ له ولشعبه من المحتل الاستيطاني الصهيوني.

وكذلك جاءت رواية (بينما ينام العالم) للروائية الفلسطينية (سوزان أبو الهوى) ـ المولودة عام (١٩٦٧م) لتعبر عن مأساة اللاجئين في الشتات منذ عام (١٩٤٨م) حتى (٢٠٠٣م) وتعززها بالوثائق التاريخية الممزوجة بالفن الروائي. وتوقفت عند الجيش الصهيوني الذي أتخم بالأسلحة المتطورة، وتشبع بالحقد والكراهية على البشر والحجر والمدر فارتكب المجزرة تلو المجزرة كما وصفته في مجزرة (جنين ـ ٢٠٠٢م)، وهو الذي تلطخت أياديه بالآثام التي ارتكبها بحق شعبنا في غزة[1]... وكانت من خلال ذلك تعود إلى وطنها لتروي الأحداث المروعة التي وقعت للشعب الفلسطيني في الداخل والخارج.

ونكرر القول: إن الأدب الفلسطيني المقاوم قد تناهى إلى آذان الشرفاء في العالم وتُرجم[2] إلى اللغات الحية كالإنكليزية والفرنسية والإسبانية والروسية والتركية، والفارسية والإيطالية وغيرها؛ ولاقى قبولاً واسعاً حين خلق تعاطفاً شديداً مع قضية الشعب الفلسطيني، ولاسيما حين أخذ العالم يشاهد الإجرام الصهيوني في ممارسة القتل الجماعي الهمجي على شاشات الفضائيات كما حدث في مجزرة (جنين) التي ارتكبتها قوات الاحتلال عام (٢٠٠٢م)، وحينذاك سجنت المرحوم ياسر عرفات في مقرّه في (رام اللّه)، مهددة إياه بالقتل إذا خرج منه...

وإذا كان مضمون هذا الأدب قد جذب العقول والقلوب إلى ترجمته فإن

---

(١) انظر مجلة الطلائع ـ ص٢٩ ـ العدد ١٥٧٣.

(٢) انظر الموسوعة الفلسطينية ٤/٢٥٥ ـ ٢٨٨.

شكله أثر فيها بما يملكه من إيقاعات وصور وأخيله، وتراكيب، تفيض بالإمتاع والراحة، ما يجعله يحقق الهدف النهائي لوظيفة الجمال...

وكذلك نرى أن هناك عوامل أخرى دفعت إلى ترجمته؛فهو لم يدخل في وظيفة المنفعة الخالصة التي توفرها النظريات الفكرية، والإيديولوجيات المبدعة، وإنما دخل في وظيفة الدفاع عن الذات والوجود بصور فنية جميلة، في الوقت الذي جسَّد في ذاكرة المتلقي قضية التحرر الوطني سياسياً واجتماعياً وثقافياً... ولا سيما حين طفق ـ بكل تسمياته أدب النكبة أو أدب النكسة أو أدب الاغتراب ـ يتخلص شيئاً فشيئاً من النبرة الخطابية السياسية، ويبتعد عن موجة الحزن الجارفة التي غمرته لمدة من الزمن، ما يشي بأنه بدأ يتخلى عن سمة الألم والبكاء لتصبح فيوضاته الفكرية والعاطفية موجات متتابعة من الرفض القوي للنفي والتشرد، مؤثراً التمرد على الخيمة واللجوء،... وكذا يقال في الأدب الذي تناول ظاهرة الأسر والأسرى وأدب الاغتراب... فضلاً عن تمرد المبدعين على خوفهم من السلاطين والمماليك والأنظمة العربية المتهالكة على السلطة... فلا مراء بعد ذلك أن ينطلق الأدب المقاوم إلى آفاق إنسانية رحبة بوصفه يعبر عن حركة التحرر الوطني، ما جعل أبناء العالم ولا سيما في أمريكا الجنوبية يتلقفونه بشغف، ويتمثلون به...

ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نذكر ترجمة كتاب (الشعر الفلسطيني المقاوم) إلى الإسبانية، وكذلك بقية الأجناس الأدبية مثل رواية (رجال في الشمس) المنشورة عام (١٩٦٣م) والمجموعة القصصية (عائد إلى حيفا) وغير ذلك من القصص والروايات والأشعار... فقصيدة محمود درويش (أيها العابرون... عبر الكلمات العابرة) ـ مثلاً ـ انتشرت في الآفاق وترجمت إلى لغات عدة وكذا بقية أشعاره، وأشعار سميح القاسم وغيره... ولهذا لا نستغرب أن تزداد روح المقاومة الفلسطينية قوة بعد انتصار اللحم على السيف في غزة (٢٠٠٨ ـ ٢٠٠٩م)[1]، وانكسار شوكة العدو الوحشية على الرغم من عدوانه

---

[1] كانت أول هزيمة تلقاها على يد المقاومة العربية في لبنان عامي (٢٠٠٠م) و (٢٠٠٦م) ثم ==

الهمجي البشع الذي استخدم فيه كل الأسلحة المحرمة... فضلاً عن استمرار انتكاسة مسيرة التسوية التي تقودها السلطة الفلسطينية برعاية غربية وبعض أطراف عربية.

فالشعب الفلسطيني يخوض معركة التحرير في إطار برنامج ميثاقي وطني مقاوم مرجعيته كل أبناء فلسطين في الداخل والخارج وثقافته ثقافة المقاومة والصبر والتشبث بالوطن والوجود، يسانده كل الأحرار في العالم... ثم إن معركته تمتد إلى كل مكان، وفي كل أوان في سجون الاحتلال الصهيوني؛ ورفض نهج الاستسلام والتخاذل، والتسويات المذلة، ومواجهة التفاوض العبثي بكل قوة.. وكسر الحصار والتجويع المميت بكل الأشكال، والإفادة من التضامن العالمي بقوافل العودة لكسر الحصار وغيرها. فمقاومة الاحتلال الصهيوني صار في رأس أولويات المجتمع العربي...

فإذا ألفينا أنظمة عربية رسمية تلجأ إلى ممارسة التطبيع مع الكيان الصهيوني؛ وتؤسس هزيمة نفسية على مستويات عدة وتروج لسياسة المصالحة معه حتى صارت الخيانة وجهة نظر، فإن عدداً من الأطراف الأخرى كالشعب الفلسطيني المقاوم ومعه سورية وإيران والمقاومة الوطنية في لبنان والشعب العربي وشرفاء العالم قد التزموا جميعاً بخط المقاومة، وحرصوا على ربط الأقوال بالأفعال. ولا شيء أدل عليه من التصدي للعدو الصهيوني بأساليب مختلفة منذ مطلع الألفية الثالثة التي شكّلت تحولاً نوعياً في الرؤية والموقف على مختلف الصُّعد. ويؤكد هذا التحوّل ذلك التشكيك الصارخ لدى الصهاينة أنفسهم في استمرار الدولة الصهيونية على ما هي عليه، كما نراه في مقابلة لرئيس الكنيست السابق (أبراهام بورغ) في مقابلة مع مجلة (قضايا إسرائيلية ـ عرب ٤٨):

"إن استمرار تعريف إسرائيل بدولة يهودية ينطوي على موقف مشحون بامتياز، ومن شأنه أن يؤدي إلى نهايتها، ويستحيل أن يتعايش مع تعريفها بأنها ديمقراطية... يجب أن يصبح الشعب اليهودي ودولته جزءاً عضوياً من

هُزم مرة ثانية في غزة (انظر ملامح في الأدب المقاوم ـ فلسطين أنموذجاً).

الأسرة البشرية؛ لا مخلوقاً مستقلاً مميزاً ومنفصلاً لا ينتمي إلى التاريخ"[١] ونشرت صحيفة (هآرتس) الصهيونية في (١٥/ ٤/ ٢٠١٢م) مقالاً للكاتب الصهيوني (جدعون ليفي) قال فيه: "إن الدولة وقد أصبح عمرها (٦٤) سنة لا تزال تواجه الأسئلة نفسها وكأنها ولدت أمس، ولا جواب عليها، لا أحد عنده جواب عما سيكون عليه وجه الدولة بعد عشر سنين، بل يوجد من يشكون في مجرد بقائها حتى ذلك الحين، وهذا سؤال لا يثار حول أي دولة أخرى"[٢] فهناك تنام للشكوك في الذات الصهيونية وهناك تصميم من الشعب الفلسطيني على المقاومة واستعادة حقوقه كاملة.

ولعل من أبرز الشواهد على ذلك ما جرى يوم (١٥/٥/٢٠١١م) في الذكرى (٦٣) للنكبة حين قَرّرت كوكبة من الشباب الفلسطيني اختراق الأسلاك الشائكة على الجبهة الشمالية لفلسطين من سورية ولبنان ودخل عدد منها إلى فلسطين المحتلة وبعضهم لا يتجاوز عمره (١٥) سنة مثل (عمار سمير الخطيب) من قضاء صفد[٣]... بينما وصل الشاب (حسن حجازي) إلى حيفا... فهؤلاء الشبان لم ينسوا فلسطين زحفوا إلى موطن آبائهم وأجدادهم في مسيرة العودة لا يأبهون للموت، وما يلقونه في الطريق إليه وكذلك لم ينس الشعراء أن يؤرخوا لهذه الحالة الثورية في النفس العربي كما نراه عند الشاعر السوري نزار بني المرجة في قوله من قصيدة (صلاة في مجدل شمس):[٤]

---

(١) انظر جريدة الثورة - ص ١٧ - العدد ١٤٨٤٥ - دمشق تاريخ ١٦/ ٥/ ٢٠١٢ - مقال (في الذكرى ٦٤ لاغتصاب فلسطين... مستقبل إسرائيل موضع تساؤل وجدل) - د. صياح عزام.

(٢) انظر جريدة الثورة - ص ١٧ - العدد ١٤٨٤٥ - دمشق تاريخ ١٦/ ٥/ ٢٠١٢ - مقال (في الذكرى ٦٤ لاغتصاب فلسطين... مستقبل إسرائيل موضع تساؤل وجدل) - د. صياح عزام.

(٣) انظر مجلة العودة - ص ٢٨ - مقال (عمار الخطيب أحد جرحى مسيرة العودة ٢٠١١م).

(٤) بوح (قصائد مختارة) - ١٨٤ - ١٨٦ (الشيخ: جبل الشيخ - سلطان: إشارة إلى تمثال سلطان باشا الأطرش في ساحة (مجدل شمس).

ـ ١ ـ

القبلة فلسطين...

والجولان سجّاد الصلاة

دمهم ألغى الخرائط كلها

الريح ليست عاتية!!

والظروف مواتيه

للاقتحام... والالتحام

بثراك يا فلسطين!!

ـ ٢ ـ

كان مطلوباً وُضوء الدمْ

والتيمم بالترابْ

والقصيدة كانت تسطّر ذاتها

بيت القصيد:

شطر جريحْ... شطر شهيدْ

والقوافل آتيه!!

ـ ٣ ـ

أدّوا الصلاة

الشيخ أَمَّ جموعهم

سلطان يحرسهم

محرابهم سهل الجليلْ

دمهم أشار

إلى الطريق

أما الذكرى الرابعة والستون للنكبة فإنها أتت متزامنة مع إضراب ما يقارب (٣٠٠٠) معتقل فلسطيني عن الطعام[١]؛ بات أغلبهم يصارع الموت في سبيل إثبات حقه في استعادة حريته وحرية وطنه. فمعركة الأمعاء الخاوية للمعتقلين الأسرى تهدف إلى تحريرهم دون قيد أو شرط أو تمييز، علماً أن كثيراً منهم ما زال يتعرض للتعذيب والحرمان من أبسط الحقوق الإنسانية ما يؤكد أن الشعب الفلسطيني يخوض معركة الكرامة على كل مستوى... ويصرّ على تطبيق المعاهدات والمواثيق الدولية ولا سيما اتفاقية جنيف الرابعة، ومختلف مبادئ حقوق الإنسان والقانون الدولي؛ ويوضح رفضه لكل أشكال التخاذل العربي تجاه اغتصاب الأرض والوطن والحقوق... وقد أظهرت الإحصائيات أن (٨٠٠) ألف أسير زُجَّ في المعتقلات الصهيونية منذ عام (١٩٦٧م)، وبقي منهم فيها ما يزيد على (٨٠٠٠) أسير منهم (٢٣٥) طفلاً، و(١٤) امرأة، و(١٤) عضو مجلس تشريعي ووزيرين سابقين[٢]...

ومن ثم فإن معركة الأمعاء الخاوية للأسرى توازي الأشكال الأخرى للمقاومة، على الرغم من الوعود الكاذبة لحل القضية؛ وهي وعود تزايدت في زمن الربيع العربي الرديء.... ولذلك مازال الشعب الفلسطيني بإضراب تلو الإضراب، كما جرى في الضفة الغربية وقطاع غزة خلال عام (٢٠١٢م) رداً على السياسة الصهيونية العنصرية والظالمة التي يمارس فيها أبشع أنواع العنف ضدهم؛ ما أدى إلى وقوع مواجهات عنيفة زاد فيها عدد الجرحى على (٢٧٠) جريحاً في الضفة وغيرها...

وقد أتى ذلك كله إثر قيادة المناضل البريطاني (جورج غالاوي) لقافلة (حق العودة ـ رقم ١٢) للتضامن مع شعبنا في غزة وفك الحصار عنه والاطلاع على وضعه المأساوي ولفت أنظار العالم إلى هذا الحصار الصهيوني وما خلفته فيه آلة الفتك والدمار من فظائع، من دون أن يتحرك ضمير بعض الحكومات

---

[١] انظر مجلة العودة ـ ص ٣٢ ـ العدد ٥٦ ومجلة الهدف ـ ص ٨ ـ ٩ ـ العدد ١٤٦١.

[٢] انظر المرجع السابق ومجلة الهدف ص ٦ ـ العدد ١٤٦١.

الرسمية غرباً وشرقاً.... وتضم القافلة المؤلفة من (١٦) حافلة (٣٠) متضامناً من دول مختلفة. وقد انطلقت من أوربا يوم (٢٠١٢/٤/٢٢م) وعبرت سبع دول منها إلى تركيا ثم تخطت معبر (كسب) على الحدود السورية في (٢٠١٢/٥/٩م)... ووصلت إلى غزة بُعيد (٢٠١٢/٥/١٥م) بعد أن انضم إليها متضامنون آخرون من الأردن ومصر. فالقافلة تمثل وعي الشرفاء الأحرار من دول العالم دعماً لحق الفلسطينيين بوطنهم، ومساندتهم لهم بطلب الحرية والاستقلال واستقبلها أهلنا في غزة استقبال المستبشر بالمستقبل المنشود. ونرى أن القوافل التي اتجهت إلى غزة وغيرها؛ أو تلك المسيرات التي واكبت ذكرى النكبة، وما شددت عليه مناهج التعليم، والندوات الثقافية والأدبية؛ فضلاً عن إحياء يوم الأرض ويوم الأسير قد زاد الوعي بحضور النكبة في النفوس والأمل بالتحرر منها، وإعلان الدولة الفلسطينية المستقلة... ومن ثمة فإن الذكرى (٦٤) للنكبة تدل بما لا يقبل الشك على الارتباط بفلسطين، وتوحيد الجهود الوطنية والقومية لجعل القضية الفلسطينية ـ من جديد ـ قضية الحياة والوجود في مواجهة المشروع الصهيوني الاستيطاني الاستعماري، ويدل على ذلك تلك المسيرات الاحتجاجية التي تشهدها بلدات فلسطينية عدة في الضفة الغربية وقطاع غزة؛ رافضة سياسة التجويع والإفقار؛ وإهانة الكرامة الآدمية لكي تبقى فلسطين مستباحة على المستويين؛ مستوى الاحتلال الصهيوني؛ ومستوى الاستسلام لاتفاقية الإذعان (اتفاقية أوسلو).

ومن يتأمل التظاهرات التي جرت يوم الخميس (٢٠١٢/٩/٦م) فيما يزيد على عشرين بلدة في الضفة يدرك أنها لم تكن مجرد غضب على سياسة التجويع ـ فقط ـ؛ وإنما هي ـ كذلك ـ احتجاج عارم بالتمرّد على ما آل إليه انتهاك القرار السيادي للسلطة الفلسطينية؛ علماً أن الدوائر الغربية الصهيونية تخطط بمهارة من أجل تصفية القضية الفلسطينية برمتها...ولكن الشعب الفلسطيني سيقف بالمرصاد لكل الأساليب الملتوية لدهاقنة السياسة؛ وفضح من يقوم بتنفيذها على حساب الحقوق المشروعة له، وسيواجه بإرادته ولحمه كل أنماط الاستيطان الصهيوني وإرهابه المدعوم بآلة الفتك الأمريكية والغربية وسيظل التاريخ يؤكد أن السلطة السياسية التي تشيح بوجهها عن رؤية الحقيقة؛ ولا تأخذ بالحس الفطري الصافي لتطلع شعبها؛ ولا تغيّر

استراتيجياتها القديمة... هي سلطة عقيمة وعاجزة، ولن يكون لها مستقبل ثابت، أياً كانت المناورات التي تقوم بها لتثبيت ذاتها ولن يكون لها حظ في الحياة... وإذا كان تاريخ النكبة الفلسطينية مليئاً بالمآسي والإخفاقات؛ بمثل امتلائه بالمجازر الصهيونية فإن الحياة لن تتوقف عند هذه المصائب العظيمة؛ فالشعوب قادرة بعزيمتها وتمسكها بحقوقها؛ وتبنيها للثقافة الوطنية المقاومة على التحرر من ربقة القيد، والإنكسار، والإحباط... وليس من أحد قادر على الفصل بين الثقافة الإنسانية والثقافة الوطنية؛ فهما متكاملتان وإن افترقتا إلى حين...وسيبقى الشعر خاصةوالأدب عامة تعبيراً مقاوماً عن روح الثورة؛ وروحاً إحيائية جديدة كلما مَرَّ عام من أعوام النكبة، إنها روح لا تقل في عنفوانها عمّا قدمته الذكرى الثالثة والستون حين اجتاز شباب الأمة الأسلاك الشائكة للعدو الصهيوني على الحدود الشمالية مع فلسطين المحتلة؛ هازمين التردد والخوف الذي يدبّ في الأوصال؛ متذكرين قول الشاعر الراحل يوسف الخطيب:

داري وفي العينين والشفتين نجواك لا كنت نسل عروبتي إن كنت أنساك

فالمبدعون الذين استطاعوا استنهاض أبناء الأمة؛ وعرضوا لكل نكبات الأمة ونكساتها محذرين، وثائرين جسدوا ذاكرة وطنية مقاومة لا تبلى جدتها، فخلقوا من نكبة (١٩٤٨م) ثورة لا ينطفئ أوارها، ومن نكسة (١٩٦٧م) حجارة متوهجة لا تنكسر إرادتها... وهم قادرون على إعادة تكوين الذائقة السليمة لمعرفة الحقيقة؛ وإثراء الذاكرة بالقضايا العربية؛ وجعل النكبة ـ على الدوام ـ فعلاً ثورياً تحريضياً من أجل تحرير فلسطين من البحر إلى النهر وعودة وطنهم إلى أهله... فضلاً عن تحفيز زملائهم وبقية الأحرار من مثقفي العالم على التعاطي مع الأحداث المتغيرة حتى يتحقق هدف أبناء الأمة في إزالة الغُمَّة عن صدرها وقدرهم جميعاً أن يولدوا من رحم النكبة. فهم يخلقون الواقع السياسي والثقافي الذي يرغبون فيه ويصممون عليه بعيداً عن الهجنة والتشويه، وبعيداً عن الجري وراء مجرد السلطة السياسية الفارغة؛ والأمنية الطفيلية... فهم لا يريدون حريتهم أو ثقافتهم أن تغدو مجرد قضية عقارية، أو أجهزة أمن وسفارات؛ وسلطة سياسية تؤدي عملياً الزيارات من

دون فعل حقيقي... ولاسيما أن الصهاينة لم يعودوا يتحدثون إلا عن مسارات التنسيق الأمنية التي تحفظ أمن المستوطنين؛ ويحرصون على الاستمرار بإقامة المستوطنات التي تبتلع مزيداً من الأراضي؛ وإذا ما قامت المفاوضات جرى التفاوض على مثل هذه المستوطنات... فالصهاينة يتحدثون عن تبادل الأراضي لا عن القضية الفلسطينية...

وحينما يكون المبدعون طليعة في التمسك بثوابت الأمة وقضاياها؛ وصادقين في التعبير عنها فإنهم يضعون أبناءها على الجادة الصحيحة؛ من دون أن يضيعوا في دهاليز السياسيين؛ وانحراف بعض المثقفين الذين أضاعوا اتجاه البوصلة الوطنية ومن ثم فإن القضية الفلسطينية ستظل قضية ساخنة وحيَّة في العقول والضمائر؛ بوصفها قضية كفاح وطني تحرري؛ شكلاً ومضموناً... وهي تصوغ نفسها وفق متطلبات الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني الذي دخل كتاب التاريخ وأشرقت شمسه متذكرين قول محمود درويش، ومما جاء فيه:[1]

إن الشعوب ستدخل هذا الكتاب وتأفل

شمس أريحا بدون طقوس...

فيا وطن الأنبياء... تكامل!!

ويا وطن الزارعين... تكامل!!

ويا وطن الشهداء... تكامل!!

ويا وطن الضائعين... تكامل!!

فكل شعاب الجبال امتدادٌ لهذا النشيد

وكل الأناشيد فيك امتداد لزيتونةٍ... زَمَّلتني

ومهما قيل في هذا الاتجاه أو ذاك ستبقى قضية فلسطين قضية عربية مركزية لا يجوز لأحد التفريط بها؛ ومعركة تحرير الأمة العربية/ الإسلامية

---

[1] انظر مجلة إلى الأمام ـ ص ٤٠ ـ العدد ٢٤٢٥ ـ دمشق ـ كانون الثاني ـ ٢٠١٣.

ترتبط بإغلاق ملف النكبة بكامله... بعد التخلي عن خيارات السلام أو التشويه الخاطئة، وفي طليعتها مبادرة السلام العربية (٢٠٠٢م) وغيرها مما يطرح من جديد... فأشد ما يهدد وجود الأمة إعلان الدولة اليهودية الصهيونية العنصرية الإرهابية واعتراف الأنظمة الرسمية بها... ما ينتهي إلى هَدْر الكرامة العربية والإسلامية، والقضاء على سيادة الدول التي تزعم انتماءها إلى هذه الأمة... والرد الوحيد يكمن بالمقاومة ومواجهة العدو الصهيوني أياً كان الوقت أو الجهد الذي يحتاج إلى ذلك... لا بدّ من خلق جيل عربي/ إسلامي يمارس التضحية والفداء، ويتبنى مفهوم الشهادة أو النصر عقيدة إيمانية لا يشوبها شك أو تردد... وهذا كله يفرض على الجميع مراجعة شاملة لتصحيح مسار النضال التحرري للأمة...

وتبقى كلمة أخيرة لا بد من ذكرها ـ وهي شديدة الألم لأنها لم تكن متوقعة في مرحلة التحدي ـ؛ فالنكبة ليست مجرّد هزيمة تاريخية جرت أحداثها في فلسطين حين اغتصب الصهاينة الأرض ودنسوا المقدسات؛ وهوَّدوا الثقافة والتراث والعادات... وإنما اتخذت تلك الأزمة المرعبة المعقدة الممتدة في النفس والحياة أشكالاً جديدة وقاتلة؛ وقد شرعت تغير وجه التاريخ العربي برمته. لقد بدأ السرطان الصهيوني ـ في زمن الربيع العربي ـ يدب بالجسم ويتلف أعصابه رويداً رويداً، ثم طفق يزيل منه مناعة المقاومة حتى تخرَّقته كل أشكال التطبيع والاستسلام، والاقتتال بين أبناء الأمة؛ حين تحول الصراع من صراع عربي/ صهيوني إلى صراع عربي/ عربي؛ ما يعني أن الكيان الصهيوني قد حقق لنفسه الوضع المثالي... ثم إن النكبة أضحت منذ سنة (٢٠١١م) مثخنة بالجراح على المستوى الفلسطيني والعربي وعلى المستوى الوجودي والخلقي إذ أصيب العرب بأدواء قاتلة... فإذا ولد الاستعمار الغربي/ الأمريكي/ الصهيوني وهو مسكون بالعنف والقتل والتدمير والتخريب فإن الشعب العربي صار مسكوناً بالتمزق والفتنة والانقسام والمصائب والآلام... لذا لا بدّ من إعادة تربية الذات الوطنية وتوحيد مبادئها وإذكاء روح القيم الأصيلة لتحقيق الأمل في الوجود، وتحقيق الحرية والعدالة الاجتماعية... وهذا يحتاج منا إلى تطوير مناهجنا التربوية والثقافية بما يخدم مفاهيمنا وأهدافنا التحررية والنضالية إعادة قراءة الأدب المقاوم قراءة متجددة تجسد الوعي،

وتحث العقل على الالتزام بقضايا الأمة، والتخلص من آثار النكبة تخلصاً نهائياً... ما يجعلنا نقف عند الملحق الأول وهو يجسد قراءة فكرية تحليلية لرواية غسان كنفاني (عائد إلى حيفا) بعنوان (المكان المقاوم والمقدس) بوصفه يشارك الإنسان في التحدي والثبات على الهوية والانتماء وهو ينقلنا إلى الملحق الثاني الذي يمثل نماذج شعرية لمراحل النكبة التي تناولناها بالدراسة... ثم نثبت الفهارس.... وقبل هذا وذاك نعرض لخاتمة الكتاب.

خاتمة

تعد السنوات العشر الماضية من مطلع الألفية الثالثة معادلاً موضوعياً للوعي العظيم الذي أحاط بالنكبة مصطلحاً، ودلالة، تاريخياً وتطوراً... صموداً وتحرراً من التأرجح على حبال التشرذم والتيه؛ وخيمة الذل والقَهْر... وتفنيداً لألاعيب الصهاينة ومزاعمهم حول المحرقة المزعومة، لأن ما يعانيه الشعب الفلسطيني أكثر ظلماً وقهراً من أي محرقة ارتكبت في التاريخ الإنساني.

ثم إن مأساة هذا الشعب أصبحت نشيداً إنسانياً نضالياً تحررياً في مقابل مشروع استيطاني استعماري صهيوني عنصري، إلغائي؛ غاصب للحياة والوجود والحضارة، قاتل للإنسان، مشوه للتاريخ والهوية والثقافة، ما جعل الأحرار والشرفاء في العالم ينضمون إلى قافلة المقاومة لتخليص فلسطين من براثن شذاذ الآفاق... يستوي في ذلك المثقفون والمبدعون والسياسيون والبرلمانيون وعامة القوم الذين عاينوا مآسي نكبة الشعب الفلسطيني.

ثم إن الخيام والمنافي غدت رمزاً للعودة، وكذلك هي إقامة المهرجانات والندوات والأمسيات التي أبقت القضية الفلسطينية رطبة في أفواه البشرية كافة. فلا غرو بعد هذا كله أن يعمد الصهاينة إلى إلغاء كل ما يشير إلى مفهوم النكبة في الأدبيات الصهيونية بعد أن كان حريصاً على تبنيها... فمفهوم النكبة ومتعلقاته تحول إلى برنامج مقاوم في بعض الدول العربية يتطور بتطور الأحداث والوقائع والمستجدات، ما يثبت أن الثابت بقي ثابتاً كالهوية (الانتماء الفلسطيني) والوجود التاريخي الحضاري، وحق تقرير المصير وبناء الدولة الفلسطينية كاملة السيادة وعاصمتها القدس. فالشعب الفلسطيني تجاوز عقد الخوف والنقص في نظرته لعدوه، تجاوز خوفه من التهديد بالانقراض و.... فالأجيال من الأطفال إلى الكبار ينظرون اليوم بعين الرضا للتحولات الجارية في قضيتهم وهم متمسكون بها حتى الشهادة أو النصر... ثم إنهم ينظرون إلى المستقبل بعين التفاؤل والأمل للتطهر من كل آثار النكبة، وجراحها النازفة، وآلامها الراعفة. هكذا أضحت أي ذكرى

للنكبة وقفة نضالية مقاومة وقد استلهم الشعب العربي منها معاني الاعتبار والموعظة... فمن لم يفهم التاريخ كتب عليه أن يقع في مطباته...

والله من وراء القصد

الملحق الأول:

المكان المقاوم والمقدس

(عائد إلى حيفا) أنموذجاً .

قراءة فكرية تحليلية

الملحق الأول:

المكان المقاوم والمقدس

(عائد إلى حيفا) أنموذجاً

تمهيد:

يركز هذا القسم على الفضاء المكاني (Space) ليس بوصفه قيمة طبيعية وجمالية ولا بوصفه تجميلاً للمكان وفق حالة انتقائية، أو جعله أحسن الأمكنة نتيجة الاغتراب القسري، أو التحول عنه لأمر ما... وإنما بوصفه قيمة دلالية وطنية ورؤية أدبية تختزن في ذاتها بوحاً شفيفاً، ووظائف شتى نفسية واجتماعية وفكرية وسياسية تؤصل العلاقات أو السلوكات التي تنشأ بين الإنسان وبينه... وهذا التصور لا يعني إعادة سرد الأحداث في المكان وفق ما كانت عليه؛ بل يشي بأنه سعي حثيث من الكاتب لتقديم أجوبة عدة على أسئلة تدور في خلده وواقعه... فقانون التجاور مع المكان يؤدي إلى تأثيرات متصاعدة، لتغدو آليات ذاتية وموضوعية تخالط المكان ذاته إن لم تصبح جزءاً منه، ثم تغدو مجتمعةً من الروح؛ والمشاعر والأفكار. فإذا كانت الاستجابة الشخصية تتأثر بالدوافع الذاتية الداخلية فإنها تتأثر في آن معاً بالدوافع الموضوعية الخارجية الضامنة لقوة الأحلام الباحثة أحياناً عما يسمى الفردوس المفقود، الذي يصبح بؤرة من الانفعالات المشحونة بالشجن... لذلك تصبح العودة إلى الأرض/ المكان ضرورة وطنية وخلقية؛ وفق ما يسمى علم النفس البيئي، كون الخصائص الذاتية تنشأ في صميم الخصائص الموضوعية للمكان والزمان والثقافة، ما يؤدي إلى أسباب الرفض أو القبول

أو الجاذبية إلى الانتماء الحي والفاعل.

ثم إن مقاييس الإدراك المكاني عملية معقدة تنشأ نتيجة تلك الدوافع، وهي التي تبني مفاهيم وأهدافاً وقيماً تختلف باختلاف المكان والزمان، ومن ثم تنتج السلوك المرتبط بهما... ولهذا عرّف (دوجلاس داوسن Dawson) الجغرافية السياسية بأنها "نتيجة لإحساس الإنسان بالإقليم الذي يعيش فيه، ورغبته في عزل منطقه ما يستطيع أن يحتفظ بطابعه الثقافي ويصبغ مستقبله السياسي"[1] بها. وتناول غاستون باشلار المكان متساوقا مع الفضاء المحيط به حين قال: "إن المكان هو المكان الأليف، وذلك هو البيت الذي ولدنا فيه، أي بيت الطفولة؛ إنه المكان الذي مارسنا فيه أحلام اليقظة وتشكّل في خيالنا. فالمكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكرنا أو تبعث فينا ذكريات الطفولة، ومكانية الأدب العظيم تدور حول هذا المحور"[2]. ومن ثم يعيش المكان في ذات المبدع فضاءً دلالياً يتداخل في الزمان والذكريات والأحداث، ويتماهى في الصور الفنية التي يعرضها له، ولا سيما حين يعيش حالة الاغتراب عنه.

المكان في الرواية

في ضوء التصور السابق ندرك أن الخارطة الذهنية تتأثر طرداً بالمشاعر والأحداث التي تجري في المكان الذي يولد فيه المرء ويعيش ، وحينما تكن الحواس منافذه إلى ذلك كلّه تصبح العين مرآة الروح والخيال، ويَغْدُ القلم زفرة لجوهر الكلام المتألق والمعبّر عن حساسية تلك المرآة... فالأصل في كل شيء هو الحيّز الذاتي في صميم الحيّز الواقعي والطبيعي... على وجود الحيّز الخيالي الذي لا ينقطع عن الحيّزين المذكورين لأنه ناشئ عنهما...

---

[1] انظر: "مفهوم ظاهرة الإدراك ومدى توظيفها في ميدان الجغرافية السياسية" - إبراهيم محمد علي الفقي - مجلة جامعة الملك سعود - مج٢١ - الآداب - كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩م - ص٢٣٣.

[2] انظر جمالية المكان - غاستون باشلار - ترجمة غالب هلسا - ١٩٨٤م - ص٦.

وحين يصمم الروائي روايته يبدأ من نقطة ما تاريخية أو مكانية أو زمانية، نفسية، أو واقعية، أو اجتماعية.. ثم يحيل ملامح تلك النقطة الفنية إلى مشاهد حيّة وفصول تبحث في كل ما يفرضه عليه العمل الروائي الممزوج بالواقع من حوله كاشفاً عن كل محتوياته وفق علاقة التفريق بين المؤرخ والروائي ما يجعل الثاني يلجأ أحياناً إلى مبدأ التعرية أو التغطية... وتعد الرواية المقاومة ـ وفق ما وجدناه عند غسان كنفاني، وأمثاله ـ جامعة لمفهوم الدراية في تصميم واقع فني إبداعي مرسوم بكل عناية ودقة. وقد أضفى عليه مسحة القداسة والثبات على تاريخ مثير اصطنعه لأصحابه بوصفه يجسد الذاكرة الحية التي لا تنقطع عن مخيلتهم وبلغة فنية لا ترتهن نفسها لموضوعية الواقع الصرف...

وما من باحث يخص المكان المقاوم والمقدس في الرواية الفلسطينية إلا أدرك أن المكان الروائي يرمز إلى فلسطين جغرافياً؛ ويرمز إليها وطنياً في صميم ذاكرة منفتحة على صفحات الواقع والتاريخ؛ ومعبرة عن مخزون دلالي في اللاوعي؛ ما أضفى على الأدبية المكانية لفلسطين سياقات تتفاعل مع المكان الروائي والانتماء له والتَّوق إليه، والتعلق به. وكذلك فهو يرمز إليها على المستوى الشخصي بما تجسده من رؤى وأحلام... ومن ثم فالعلاقة بينهما علاقة اندماج وليست علاقة تنابذ أو تنافر؛ أو هجر وانسلاخ... وإن كان الروائي يقوم باختيار أمكنة دون أمكنة، وهي تلك التي عاينها ورآها على الأغلب... وقد تناولت الرواية الفلسطينية ـ وكذلك الرواية العربية ـ كل أشكال المكان وتحولاته... وهذا ما يمكن أن يتبيّنه المتلقي في روايات عربية عدّة مثل روايات (جبرا إبراهيم جبرا ـ وإميل حبيبي ـ ورشاد أبو شاور ـ....).

ويمكن للباحث أن يجد في المكان الروائي عند (غسان كنفاني) ضالته؛ إذ يرى فيه خصائص رحلة البحث عن الوجود والوطن والقيم والمبادئ الإنسانية النبيلة. فالمكان عنده يستدعي الرؤية ذات الأبعاد النفسية والاجتماعية والفكرية زمانياً ومكانياً، ولاسيما حين يتوهج الوصف الداخلي لحالات الوعي وغيابه عند الشخصيات؛ وهي حالات تتكشف عن

أفكـار مـثيرة... وبخاصـة حينمـا يتخـذ الـكاتـب الروائـي لذاتـه بعـداً نضـالياً رؤيوياً؛ أي إنه يمتلئ بحس الانتماء الصادق والمقدس امـتلاءً غير عـادي، إذ لم يكن لديه خيار إلا أن يكـون إلى جانـب المكـان الـذي ولـد فيـه ونشـأ النشـأة الأولى الـتي غـذَّت روحـه وجوارحـه، مـا جعلـه يصـبح قضـيته الأولى سياسـياً وفكرياً و...

وإذا كـان هـذا القسـم لا يسـتطيع تنـاول المكـان في رواياتـه كلـها بمـا تختزنه من أسرار وأبعـاد فكريـة وفنيـة فإننـا نختـار دراسـة المكـان في روايته (عائـد إلى حيفـا) بوصـفها أشـبه بتوثيـق تـاريخي نضـالي وطـني يتركـز في ا لشخصية الذاتيـة والوجودية لمجابهة مخاطر الشتات والاغتراب الـداخلي مـن جهة؛ وبوصفها تتحدث عـن العـذابات الـتي يعيشـها الفلسـطيني بعيـداً عـن بيتـه وداره ووطنه من جهة أخرى. وكانت قد نُشـرت في عـام (١٩٦٩م) بعـد عشـرين عاماً من نكبة (١٩٤٨م) وإثر نكسة (١٩٦٧م).

فالرواية تجسد حالة ضياع الانتماء إلى المكـان /فلسطين (الهويـة والـوطن والأرض والثقافة)،وتحكـي حالة الضَّياع في أرض الشتات، واللهاث وراء حلـم العودة دون أن يكون هناك فعل موضوعي لتحقيق هذه العـودة إلا الجـري وراء المشاعر الذاتية والوطنية، علماً أنـه ذكـر فيهـا أمكنـة شـتى مـن يافـا إلى رام اللّه والقدس وعمّان و...

فالحـديث عـن هـذه الأمكنـة يتـداخل في صـميم واقعيـة مـثيرة وهـو يرسـم ملامـح الأحـداث في الروايـة، في إطـار السـرد الفـني المـثير تـارة، وفي إطـار الاسترجاع والخطف خلفاً إلى بداية زمن النكبة...تارة أخرى.

فالفضـاء المكـاني في روايـة (عائـد إلى حيفـا) فضـاء واقعـي طبيعـي، تاريخي اجتماعي؛ فكري سياسـي وديني وكـذلك هـي الأحـداث الـتي تجـري فيـه، وكـل منهـا ولـدت مـن رحـم الحقيقـة التاريخيـة الـتي تؤكـد مشـروعية انتماء الفلسطيني إلى أرضه.

ولهذا فهو يرجع إلى واقعـه وتـاريخ وطنـه ليحيـل منهمـا واقعـاً فنيـاً مميـزاً،

ويجعل المكان منجزاً روائياً نضالياً يعيش في فضائه الحر الذي تستدعيه مشاعره ومخيلته، وذاكرته المنفتحة على الآخر تصوراً وفلسفة، وجوداً وإلغاءً، وعلى الواقع الراهن والتاريخ أن يحدثنا عن المعارك التي جرت في (يافا) وغيرها ضد الصهاينة.

ويستغرق ذلك كله بلغة فيّاضة، سهلة وجميلة؛ جاعلاً البطل (سعيداً) هو صوت المؤلف ـ غالباً ـ وهو ما انطلقت منه الرواية؛ إذ قال: "حين وصل سعيد. س. إلى مشارف حيفا، قادماً إليها بسيارته عن طريق القدس أحس أن شيئاً ما ربط لسانه، فالتزم الصمت، وشعر بأن الأسى يسكنه من الداخل. وللحظة واحدة راودته فكرة أن يرجع... وفجأة جاء صوت البحر تماماً كما كان، لا، لم تعد إليه الذاكرة شيئاً فشيئاً بل انهالت في داخل رأسه..."[1] وهذا المقطع يحيلنا إلى تصوره لمفهوم المكان بوصفه يتحرك كما الإنسان، وكأنهما صورة واحدة تعبر عن الحكايات التاريخية الموثقة بكل ما فيها من خيبات وآمال، ثم إن حركة المكان هي حركة مشاعره وعواطفه وأفكاره؛ وهي حركة ناسِهِ وقد انبجست الحياة من الموت، والتجدد من الاندثار، والبقاء من الزوال.

ومن يتناول المكان المقاوم في رواية (عائد إلى حيفا) لا يمكنه إلا أن يبتدئ بالعنوان، وهو عنوان مباشر يضعنا في إطاره الزماني/ النفسي، والنضالي/ الفكري الذي يتجاوز محنة اللجوء والتشرّد على الرغم من شدة الحياة البائسة التي كان يعاني منها هو وأمثاله من أبناء الشعب الفلسطيني وهو القائل على لسان عجوز نازح في الخيام: "تريدني أن أحدثك (يا سيدي) عن خروجي من فلسطين، لا بأس... سأحدثك، ولكن كل إنسان يعرف القصة، اجلس هنا... لو أتيت إلى يافا لكنت استقبلتك بشكل حسن،

---

[1] عائد إلى حيفا ـ ص ٢٢.

ولكن لابأس سنعود لها يوماً ما، وسأستقبلك هناك"[1].

فالعنوان يطالعنا بروح الثورة على حالة الضياع التي نُكب بها غسان، ومن ثم طفق يتلمس تجاوز حالة القهر والذل والتمزق، ما جعله يحرص على إنهاء حالة العيش في خيام الجوع والشتات.. فمحنة المخيم الذي عصفت فيه الريح ولوى الفقر والبؤس أعواد خيامه تواجه بالتصميم على التمسك بالوطن ترقب العودة إليه، أما حالة التشرّد المستمر في المنافي فقد فرض عليه الأمل بحلم العودة إلى حيفا ما أدى إلى كتابة العنوان وفق جملة اسمية تقريرية ثابتة في الزمان والمكان بوصفها حقيقة مطلقة (عائد إلى حيفا).

وهكذا فإن ثمة معيارية تستتير بها ذائقة الروائي بالعنوان الذي يسطع رؤية زمانية وفكرية ثابتة وانتهاءً بالقيمة الفنية المرسومة لذلك المكان الذي يتفيأ ظلالاً مقدسة تنسكب في الأرواح من خلال التفاصيل الروائية.

ومن ثم نرى أن العنوان ليس محايداً، فهو يعدّ ردّاً قوياً على مفاهيم (المنافي) القسرية والانتقال فيما بينها وراء التقاط لقمة الحياة... فالعنوان - بهذا الوعي - تعبير عن القلق الوجودي الإنساني الذي يعاني منه ليل/ نهار.

ولعلّ ما ورد في صميم أحداث الرواية يؤكد ذلك فبطل روايته (سعيد) لم يستطع أن يجد في الأماكن المفتوحة التي انتقل إليها مكاناً حيوياً أو بديلاً له عن المكان الأصيل (حيفا) أياً كان قربه منه، مثل (يافا) وغيره... كان يرى في كل مكان ينتقل إليه مكاناً نفسياً مغلقاً باثاً للقلق والحزن... وهذا يقوّي لديه مفهوم ثبات المكان الروحي المرسُوم في خياله لمدينته (حيفا) بوصفه مكاناً مقدساً لا يروم بديلاً عنه. وحين يتعلق سعيد بحيفا، ويصرّ على العودة إليها فإنه يصرّ - في آن معاً - على العودة إلى بيته دون غيره من بيوت حيفا، ليثبت انتصاره على حالة الاغتراب الزماني/ المكاني. ولعلّ هذا نفسه

---

[1] معارج الإبداع ٨٥.

هو الذي جعله يصوّر المنافي البعيدة عن مكان الولادة والنشأة بأنها أماكن قاتلة، وهو ما عبّر عنه في روايته (رجال في الشمس) وكان قد نشرها في بيروت عام (١٩٦٣م).

فسعيد متعلّق ببيته، وهو ما يشي بفكرة مقاومة التشرد والتهجير؛ والنفي القسري والطوعي، ومن ثم يصبح المكان /البيت رمزاً مقاوماً لكل صنوف التغيير والتزوير والتدمير والتخريب مادياً ومعنوياً...

أي إن الحديث عن المكان يتعلق بالبيت ورموزه المتنوعة، فالبيت عند غسان كنفاني رمز حي للوجود الأول لمعانقة الإنسان للحياة، وهو يجسد حالة الكينونة الاجتماعية والثقافية ويقدّم الوظائف الأولى لماهية الوطن، كونه المبدأ والأصل للهوية الوطنية وللقيم والخلق الذي يُغَذَّى بها يوماً إثر يوم.

فالبيت من جهة يشير إلى ملامح الحياة البائسة المعطوبة والموحشة ومن جهة أخرى يسبح في شغاف الرغبة المطلقة للتحرر من تلك الوحشية، وهو ينكشف عن أسرار عميقة غير هشّة ولا رخوة. إنه يتطلع إلى الماضي الحزين ليراه ممتداً في المستقبل القادم وقد اكتسب بهاءه المتألّق عن طريق الصبر والثبات والصمود ومقاومة كل أشكال التغيير والتشويه كما الإنسان المقاوم الذي انزرعت فيه رغبة التحدي والكفاح لكل أشكال القهر والاستبداد والاحتلال والتزييف والتحريف...

فالمكان/ البيت عند غسان مكان مقاوم وثابت في الذاكرة والجغرافية والتاريخ والثقافة، وهو يوقظ كل النائمين تحت التراب من رَقْدتهم... ما جعله يجذبنا إلى فضاءاته كلها ليصوغ منها جنته الموعودة؛ مصراً على أن تظل صورته هي هي لا تفارقه، وكذلك كانت غرفه وجدرانه والأشياء التي تركها فيه والأزقة المحيطة به...

لهذا فما إن عاد إلى بيته ـ ومفتاحه ما زال معه، لم يتخل عنه يوماً ـ[1] حتى أخذ يجول في أنحائه باحثاً عن كل صغيرة وكبيرة تركها فيه؛ كان يتحرك في زواياه دون شعور منه ليروم الأشياء التي علّقها هو وزوجته على الجدران والزوايا، كانا يحرصان على تزيينها بالمزركشات واللوحات... وحين كانت اللوحات تتغير وتتبدل فقد أصر على إبقاء صورة القدس معلقة على الجدار جدار فلسطين وكأنها توأم المفتاح في الرمزية والثبات على العودة، فيقول: "ثمة صورة للقدس يتذكرها جيداً، ما تزال معلقة حيث كانت حين كان يعيش هنا. وعلى الجدار المقابل سجادة شامية صغيرة كانت دائماً هناك ـ أيضاً .. وأخذ يخطو ناظراً حواليه مكتشفاً الأمور شيئاً فشيئاً"[2]. فغسان كان حريصاً على استعادة الخارطة الذهنية لأجزاء المكان/ البيت وكل ما جرى فيه من تغيير، أو لنقل كانت الصورة الخيالية تستعيد الصورة الواقعية القديمة الثابتة في ذاكرته ومشاعره ما يعني أن ذاكرة المكان ثابتة في عقل سعيد وزوجته صفية لا تبرحه تقاوم التغيير والتحريف أياً كانت العذابات التي صادفها في المنافي على اختلاف مراحل اللجوء والنفي وهو القائل "المنزل ذاته ذلك الذي عاش فيه، ثم عيّشه في ذاكرته طويلاً، وها هو الآن يطل بمقدمة شرفاته المطلية باللون الأصفر"[3]...

لهذا استفزت الأشياء الجديدة للزينات سعيداً وزوجته لأنها حوَّلت المكان عن جوهره الحقيقي والأصيل، ولاسيما حين عمدت إلى حالة تغيير ملامحه... ولعل ما يلفت المشاعر والعقل أن سعيداً وزوجته كانا يتفقدان كل ما تركاه فتسمرت عيونهما عند طاولتين قديمتين لهما في غرفة الجلوس، وقد استوطن إلى جانبها ـ بأسلوب غير منسق ـ ثلاثة مقاعد جديدة... كان غسان حريصاً

---

[1] انظر عائد إلى حيفا ـ ص ٤١ ـ (وقرقع المزلاج بصوت مكتوم؛ وببطء انفتح الباب).

[2] عائد إلى حيفا ـ ص ٤١ ـ ٤٢.

[3] المصدر السابق ص ٣٩.

علـى رسـم صـورة المقاعـد مبعثـرة وكـأنـه أبـى أن يجتمـع القـديم إلى الجديـد الطـارئ، وأن التحـول المؤقت في أثـاث البيت إنمـا يرمـز إلى المحتـل الصـهيوني الذي سيطر على البيت وأثاثه إلا أنـه لـن يسـتطيع أن يمحـو معالمـه، أي معـالم العروبـة الأصـيلة بنـاءً وأساسـاً، تشـكيلاً وأثاثـاً، لوحـات وشـجراً و... وكـل تحوّل مؤقت لا يمكنه أن يغيّر جوهر الحقيقة الـتي ترمـز إلى التعلّق بـالوطن، ولا بد للمحتـل الاسـتيطاني الاسـتعماري أن يرحل. وهـذا مـا عبّـر عنـه جليـاً في حواره مع العجوز السمينة مغتصبة البيت إذ "قالـت ببطء: أنتمـا أصـحاب هـذا البيت، وأنا أعرف ذلك. كيف تعرفين؟ جاء السؤال من سعيد وصفية في وقت واحد. وزادت العجـوز في ابتسـامتها ثـم قالـت: مـن كـل شـيء مـن الصـور، مـن الطريقة التي وقفتما بها أمام الباب"[1].

وهـذا يثبـت أن الأشـياء كـالأفكـار والمشـاعر تـرتبط بالمكـان/ الزمـان ارتباطـاً ثابتـاً يجسـد رمزيـة وهـج الحلـم للشـعب الفلسـطيني الـذي يصـرّ علـى التشبث بوطنه والعودة إليه.

فالبيت بحجارته وأبوابه ولوحاتـه وأثاثـه ثابتـة في الخارطـة الذهنيـة، وهـي تؤكـد أصالة الانتماء والتوق المتنـامي إليـه أيـاً كـانـت أحـداث اللجـوء وحـالات النفي والتهجير...

وحـين نتحـدث عـن البيـت فلابـأس أن نتوقـف عنـد الطفـل (خلـدون) الـذي سمته الأسرة الصهيونية (دوف)[2]... وكـان سعيد وزوجته قد ذهلا عنه وخلفـاه وراءهمـا نتيجـة العنـف الوحشـي الـذي ارتكبـه الصـهاينة بحقهمـا وحـق أهـل حيفـا. كمـا يـدل عليـه قولـه: "وانقلبـت شـوارع حيفـا إلى فوضـى، واكتسـح الرعب المدينة التي أغلقت حوانيتهـا ونوافـذ بيوتهـا. كـان (سـعيد. س) في قلب المدينة حين بدأت أصـوات الرصـاص والمتفجـرات تمـلأ سمـاء حيفـا، كـان قـد

[1] عائد إلى حيفا - ص ٤٢ - ٤٣.

[2] انظر عائد إلى حيفا - ص ٥٧.

ظل حتى الظهر غير متوقع أن يكون ذلك الهجوم الشامل، وعندها حاول للوهلة الأولى أن يعود إلى البيت بسيارته... إلا أن القتال كان قد اتسع... وبعد لحظات شعر سعيد أنه يندفع دونما اتجاه، وأن الأزقة المغلقة بالمتاريس أو الرصاص أو بالجنود إنما تدفعه دون أن يحس نحو اتجاه وحيد..." وحين فارق سعيد بيته وولده تحت ضغط التوحش الصهيوني فإنه لم يفارقهما روحاً ورؤية، ومن ثم لم يقنط سعيد من الغد القادم الذي سيجمعه بهما... آمن سعيد بأنه لن يكون طعاماً للجوء والتشرّد واليأس لذا كان مصراً على العودة إلى البيت (الوطن) وإلى من بقي فيه من الأهل والأبناء والإخوة والأحبّاء، ولاسيما أن نكسة حزيران (١٩٦٧م) قد أيقظت في نفسه مشاعر الانتماء الوطني. ولهذا طفق يعبر عن واقع الهزيمة والأمل بالمقاومة، ما يعني أن شخصية سعيد التي اتّصفت بالضعف والعجز والاستسلام منذ ترك ابنه (خلدون) وراءه مساء الخميس (١٩٤٨/٤/٢٢/) قد ثارت على دموعها وضعفها لتتحول إلى شخصية مقاومة عاملة على العودة إلى فلسطين، ما جعله يقبض على مقود سيارته وينعطف على أمله بالعودة إلى بيته/ وطنه.

وهذا ما تأسس في خطابه لزوجته (صفية) حين خاطبها: "ما هو الوطن؟!... ثم سألته برقّة يكتنفها الشك: ماذا قلت؟!.. سألت: ما هو الوطن؟! وكنت أسأل نفسي ذلك السؤال قبل لحظة، أجل ما هو الوطن؟! أهو هذان المقعدان اللذان ظلا في الغرفة عشرين سنة؟ الطاولة، ريش الطائر، صورة القدس على الجدار، المزلاج النحاسي، شجرة البلوط، الشرفة؟!! ما هو الوطن؟ خلدون، أوهامنا عنه، الأبوّة، البنوّة؟ ما هو الوطن؟!".

فالوطن ممتد في ذاته، متجذر في إرادته وعزيمته، الوطن ممتد في الزمان والثقافة والحياة الاجتماعية والأشياء والطبيعة، لذا رفض أن يبقى بعيداً عن بيته، وطفق يتذكر ابنه (خلدون) الذي تركه وراءه ولا شيء أدل على هذا من الحوار الذي دار بينه وبين زوجته (صفية) حين قررا العودة إلى البيت، إذ قال على لسان سعيد: "فهمس بصوت مبحوح: خلدون؟." فخلدون ثابت في ذاكرته ما جعله يسمي ابنه (خالداً) وابنته (خالدة). فالخارطة

الذهنية للاجئين آباء وأبناء، رجالاً ونساءً صغاراً وكباراً لا تنسى الوطن؛ ومن ثم تجلى تعلقهم به بأشكال شتى منها أسلوب مقاومة اللجوء، والإصرار على العودة، ومنها أسلوب المقاومة المسلحة التي يرمز إليها فِعْل (خالد)، وهو فعل مستمر ومكمّل لحالة المقاومة التي بدأت منذ حالة الاحتلال الصهيوني كما يرمز إليها (فارس وبدر اللبدة).

وبناء على ما تقدم فلا شك لدينا في أن الرواية تعد تسجيلاً للأحداث التاريخية وللأفكار الأيديولوجية التي تتجذر بالتربية الثقافية والاجتماعية ولكنها - على شدة تأثيرها - لم تستطع أن تزيل صفات الوطن/ المكان بوصفه القاسم المشترك النضالي بين الشخصيات. فالبيت ينتظر أهله الحقيقيين لكي يتمثلوه جوهر حياة ومبدأ كرامة، ما يشي بأنه محرك ودافع أصيل في حركة العمل الروائي كما هو في الواقع، والجميع يطوفون به، ويعملون من أجله، وهو السيد المطلق.

ثم إن المكان (الوطن - حيفا - البيت - الأشياء - الطبيعة....) متعدّد الصفات والاتجاهات في مقاومة الاحتلال، وهو يعبّر عن زاوية الرؤية للانتماء الفاعل والمتأصّل في ذاته... إنه يستند إلى رؤىً مستسرة ترفض الإلغاء والاستئصال والتغيير والتزوير... ولذلك فهي رؤية تثير في أبناء الشعب العربي عامة والفلسطيني خاصة روح الاستبشار بالانتصار على مرارة الواقع البائس الذي يتنامى في حياة الفلسطيني اللاجئ.

وإذا كان بعض الدارسين قد أخذوا على غسان كنفاني تغيّر مفهوم الانتماء لدى (خلدون) نتيجة التنشئة التربوية والثقافية لذلك الطفل الذي ربته أسرة صهيونية ورأوا فيه نمطاً من قبول العيش المشترك فإننا نرى في ذلك رؤية أبعد. وكان فيصل درّاج - مثلاً - قد رأى أن الرواية "تثني على الإنسان الصهيوني دون أن تدري، وتحلم بفلسطين نظيراً يكون جوهراً صهيونياً

مقلوباً لا أكثر"[1].

إننا ممن يؤمن بتأثير قوي للتنشئة الاجتماعية والثقافية والتربوية، ولكننا في الوقت نفسه نؤمن - إلى جانب غسان - بصلابة جوهر حقيقة الانتماء، وبأن أي ثقافة - أياً كانت قوتها المادية والمعنوية - لا يمكنها أن تزيّف حقائق قوتها المادية والمعنوية المتأصلة في الذات الإنسانية، ولا يمكنها أن تزيّف حقائق الجغرافية والتاريخ والقيم النبيلة وهذا ما نستشفه من الحوار الطويل الذي دار حول الواجب والوطن بين (سعيد) و (خلدون) ما جعله يثبت رؤيته حول الإنسان القضية[2]، ومن أن ابنه (خالداً) يمثل شرف الباقي، بينما صار (دوف) عاراً يدمغ ماضيهما...

وستظل فلسطين أكبر من الولد والأشياء، وهي بالنسبة لخالد "جديرة بأن يحمل السلاح ويموت من أجلها".

ومن ثم فقد استطاع الروائي أن يجسّد رمزية مضادة ومغايرة لنفسية ذلك الطفل (خلدون) بين ثقافة الانتماء العربية وثقافة التطبيع مع المحتل الصهيوني، وهي الثقافة التي بدأت منذ الصغر كما يشير في غير مكان من الرواية ليقول من بعد: "منذ صغري وأنا يهودي، أذهب إلى الكنيس وإلى المدرسة اليهودية، وآكل الكوشير، وأدرس العبرية[3]...". فثقافة التطبيع تنشأ رويداً رويداً، وهذا ما تجسّد لدى الطفل الذي غدا جندياً في الجيش الصهيوني، ما يوحي بأن كل من نشأ على ثقافة قبول الأمر الواقع سيقف في مواجهة المقاومين... وهو ما ظهر في الثنائية الضدية بين (خلدون) وأخيه (خالد) الذي انخرط في صفوف المقاومين لذلك الجيش المحتل. لهذا فإن الحوار الذي جرى بين (سعيد/ الأب) و(خلدون - دوف/ الابن) يدلّ على تمزق بين انتمائه

---

[1] انظر (نظرية الرواية والرواية العربية ٨٧).

[2] انظر (عائد إلى حيفا ٧٤).

[3] المصدر السابق ٧٠.

العربي وتنشئته الصهيونية... بيد أن غساناً ظلّ حريصاً على إظهار تلك الأسرة الصهيونية بأنها أسرة غازية محتلة لبيته وأرضه، أياً كانت الصورة الحضارية التي قدمها فيها، ولاسيما حين تركت لخلدون (دوف) حرية الاختيار بين انتمائه العربي وتربيته الصهيونية.

ومن ثم فإن هناك علاقة جدلية بين البيت/ الوطن و(خلدون ـ دوف) ولكن في إطار رؤية الانتماء والرؤية التربوية المختلفة. وهذا هو الذي فرض على غسان أن يقيم حواراً جوهرياً وموضوعياً بين الأب وابنه ليؤكد عمق الارتباط بالجوهر الحقيقي... وكأني به قد رغب في تقديم رسالة مبكرة إلى أولئك الذين ينفلتون من الإطار المكاني المقاوم الذي ولدوا فيه أو انتسبوا إليه بحكم وراثة الأبناء للآباء والأجداد... فهو يريدهم أن يتجذروا فيه لئلا يسقطوا في أتون الانحراف العقلي، والتوتر النفسي؛ والانجرار إلى ثقافة التطبيع والتسوية؛ متجاوزاً بهذا كلّه أولئك الذين صرفتهم أهواؤهم ونزواتهم المريضة فباعوا أوطانهم، حين رضوا العيش الذليل فاستسلموا لقوة المحتل... أراد أن يقول: إن الوطن/ المكان سيلفظهم بعيداً ليرمي بهم في مزبلة التاريخ لأنهم عجزوا عن إدراك جدلية جوهر الانتماء للوطن والوفاء والإخلاص والتضحية من أجله... فغسان ـ كما قال عنه حليم بركات ـ رؤية، " والرؤية واضحة كالضوء، من خلالها نرى الواقع، أجزاؤه ليست متباعدة، منعزلة، بل مترابطة. الفلسطيني والعامل والمرأة وجميع أبناء شعوب العالم الثالث يملكون قضية واحدة هي قضية تحرير الإنسان من التعسف والظلم والاستغلال والقهر والتغريب إلى سلع في أسواق المدن الكبرى"[1].

وبناء عليه فالمكان المقاوم الصامد صورة للثقافة الخصبة الممتدة في الذات والتاريخ والأرض لغسان كنفاني وأبناء وطنه ـ على السواء ـ يلاحقهم بكل تفاصيله وجزئياته، ليس شغفاً به فحسب وإنما تأصيلاً لملامحه في

---

[1] غسان كنفاني ـ شهادات وصور ـ إعداد الحَكَم النعيمي ـ مؤسسة غسان كنفاني الثقافية ـ بيروت ـ ٢٠٠١مـ ص٩٧.

الذاكرة الوطنية والقومية.

وما من أحد قرأ تلك الرواية ووعى شرطها التاريخي الواقعي إلا أدرك الوفاء لطبيعية المكان؛ ولـذّة السرد الروائي المكثف لملامحه المطبوعة بالنضال الوطني والإنساني ما يجعلها مجسدة لمفهوم المكان المقاوم والمقدس بكل أهدافه ووظائفه.. ثم إن الرواية تمثل أنموذجاً روائياً متميزاً ومتقدماً في طبيعة السرد الروائي المرتبط بالمكان، وتحقق ريادة نوعية في تقنيات تسخير المكان للحدث التاريخي والواقعي، وفي التعبير عن المشاعر والأفكار.

ولعل الباحث المتأمل في هذه الرواية يكتشف فيها أسراراً أخرى تفيض بالإثارة والإمتاع... ما يفرض علينا التوقف عند هذا الحد ـ هنا ـ لننتقل إلى الملحق الثاني الذي يضم نماذج شعرية مختارة واكبت مراحل النكبة...

الملحق الثاني:

نماذج شعرية مختارة لمراحل النكبة

نكبة فلسطين [1]

شعر: أحمد محرم[2]

من (الرمل)

في حمى الحقِّ ومن حولِ الحَرَمْ	أُمَّةٌ تؤذى وشعبٌ يُهْتَضَمْ
فَزِعَ القدسُ وضجَّتْ مكةُ	وبكت يثرب من فرط الألمْ
ومضى الظُّلْمُ خلياً ناعماً	يسحب البردين من نار ودمْ
يأخذ الأرواحَ ما يعصِمُها	معقلُ الحقِّ إذا ما تعتصمْ
ويرى الناس إذا أعجبه	أن يبيدوا كأقاطيع البَهَمْ
بعثته شهوةٌ وحشيةٌ	تتلظى مثلَ أجواف الأطَمْ
ما تبالي إن مضت ويلاتها	ما أصابت من شعوب وأُممْ
أهونُ الأشياء في شرعتِها	أُمةٌ تمحَى وشعبٌ يُلْتَهَمْ
هي من روح الدهاقين الألى	نشروا النور وطاحوا بالظلمْ
أنقذوا العالم من أرزائه	وأذاقوه أفاويق النعمْ
فإذا الدنيا جمال يجتنى	وإذا العيش سلام يغتنمْ

[1] نشرت هذه القصيدة في صحيفة البلاغ المصرية في ١٩٣٣/١١/١٣م، أي قبل النكبة بخمسة عشر عاماً.

[2] شاعر من مصر، ولد في القاهرة عام ١٨٧٧م، وتوفي بها عام ١٩٤٥م، وصدرت أعماله الشعرية تحت عنوان: "ديوان أحمد محرم - الأعمال الكاملة".

زينوهــــا قصــــــة ناعقــــــة   زَيَّنَــتْ للنـــاسِ مكـــروهَ الصَّـــمَمْ

كشَـفَ التجريــبُ عــن ســوْءَاتها   ومضـــت عاريــــة مـــا تَحْتَشِـــمْ

أفســـدوا العـــالمَ ممَّـــا عبثـــوا   بالدَّســـاتيرِ القُـــدامى والـــنُّظمْ

نقــضَ الأرْســانَ واسْــتَنَّ العمــى   فهـــو يمضـــي جامحـــاً أو يـــرتطمْ

سَـــلبوهُ العقـــلَ ممّـــا عربـــدوا   وسَـــــقَوْهُ مـــــن خبـــالٍ ولَمَـــــمْ

الحيـــاةُ البغـــيُ والـــدِّينُ الهـــوى   والضعيفُ الخصمُ والسيفُ الحَكَمْ

زمـــــنٌ تصـــــدقُ إنْ سَـــــمَّيتَهُ   زمـــنَ الطَّـــاغوتِ أو عصـــرَ الصَّـــنمْ

يـــا فلســـطينُ اصْـــطَليها نكبـــةً   هـاجهـــا للقـــومِ عهـــدٌ مُضـــطَّرِمْ

واشــــهديه ـﰲ حمـــاهم مأتمـــاً   لـــو رَعَـــوْا للضَّـــعْفِ حقـــاً لم يَقُـــمْ

واشــربي كأســك مِمَّـــا عصــروا   مـــن زُعـــافٍ جائـــلٍ ـﰲ كـــلِّ فَـــمْ

أذكـــري يومـــك ـﰲ أفيـــائهم   ودَعِـــي الأمـــسَ فمـــا يُغـــني النَّـــدَمْ

آيـــة للبغـــــي مــــن أسمائهـــا   حكمـــة الأقـــدار أو عـــدل القَسَـــمْ

اِكشــــفيها غُمَّــــةً لـــيس لهـــا   مـــن كِفَـــاءٍ غـــيرُ كشَّـــاف الغُمَـــمْ

الجهـــادُ الحـــرُّ يقضـــي حقَّـــه   ســـؤددُ العــــربِ ويحميـــهِ العَلَـــمْ

لا تنـــــامي للعــــوادي وادأبـــــي   واذهـــــبي طامحـــــةً ـﰲ المُـــــزْدَحَمْ

لـــيس بالمُـــدْرِكِ حقـــاً غافـــلٌ   نـــامَ والأحـــداثُ يقظـــى لَـــمْ تَـــنَمْ

ـﰲ فـــؤادي جرحـــك الـــدامي وـﰲ   كَبِـدي مـــا فيـــك مـــن حـــزن وهَـــمْ

كـــم صـــريع لـــك ـﰲ أشـــلائه   مصـــرع القربـــى وأشـــلاء الـــرحم

فجعـــوني فيـــه بـــابنٍ صـــالحٍ   وأخٍ حـــرِّ الســـجايا وابـــن عـــم

شـــهداء الحــق مـــاتوا دونـــه وهـــو حـــيٌّ العـــزِّ موفـــورُ الشَّـــمَمْ

واشـــــتروه بنفـــــوس حــــرّة بـــذلوها مــــن ســــخاء وكــــرمْ

نهــض الملـــك علـــى أمثالهـــا واســـتتب الأمـــر فيـــه وانـــتظمْ

ذهبـــوا للشـــرق في مَـــأْتَمِهِمْ مَـــرَحَ الخـــالي وبِشْـــرَ المُبْتَسِـــمْ

سَـــرَّهُ أنْ هـــبَّ مـــن أبنائِـــه قُضُـــبُ الهنـــدِ وآســـادُ الأجَـــمْ

وانتضـى مـن بـين جنبيـه الأسـى مـا انتضـى العـدوان مـن تلـك الهمـمْ

همـــمُ الأحـــرارِ تحمـــي وطنـــاً عربيـــاً ســـيمَ خســـفاً وظُلِـــمْ

باعـــهُ ذئـــبٌ لـــذئبٍ غيلـــةً فهـــو للـــذئبينِ نهـــبٌ مُقْتَسَـــمْ

تَنـــزعُ الأرزاقَ مـــن أبنائـــه وتَسُـــلُّ الأرضَ مـــن فَـــرْطِ الـــنَّهَمْ

يُرهِـقُ القـومَ فـإن هـم غضـبوا راحـــت الأرواحُ مـــنهم تُخْتَـــرَمْ

أخـــذتهم لـــلأذى عاصـــفة هاجهـــا البغـــي فهبـــت مـــن أمَـــمْ

وارتمـــت هوجـــاء مـــا يردعهـــا فـــاجع الثكـــل ولا عـــادي اليـــتمْ

عصـــفت ظمـــأى إلى آجـــالهم فـــتروت مـــن شـــباب وهَـــرِمْ

وأراهـــا مـــن تلظّـــي جوفِهـــا تتـــداعى كالشُّـــواظِ المُحْتَـــدِمْ

تتمنـــى مـــن تبـــاريح الصَّـــدى لـو يكـون الـدم كـالبحر الخِضَـمْ

شـعبَ إسـرائيلَ مـا بـالُ الأُلَـى حفظـــوا العهـــد وبـــروا بالقســـمْ

ذكـروكم ونَسُـوا مـا عقـدوا لســـواكم مـــن عهـــود وذمـــمْ

أذكـــروا بلفـــورَ في تلمـــودكم واغفـروا اليـومَ لعيسَـى مـا اجْتَـرَمْ

واســـألوا موســـى أطابَـــتْ نفســـه أم أبـــى مـــا كـــان مـــنكم فـــنقمْ

ليس مَنْ مالَ عن الحقِّ كمن ... جعل الحق سبيلاً يُلْتَزَمْ

هدم التيهُ قديماً مُلْكَكُمْ ... فبنى بلفورُ منه ما هُدِمْ

أبت الأرض فكنتم شَعَثاً ... طائراً في كل واد ما يُلَمْ

فرمى أشتاتكم في وطن ... راعه منكم بشعب مُلْتَئِمْ

نَبِّئُوا الغرقى وإن لم يسمعوا ... أَهُوَ الطوفانُ أم سيلُ العَرِمْ

مصر ناجي من فلسطينَ الربا ... وابعثي صوتك من أعلى الهرمْ

وإذا أعوز هَمٌّ أو أسى ... فاستمدي الهَمَّ من هذا القلمْ

وخذي معنى الأسى عنه فما ... لك من معناه إلا ما نظمْ

نبئيها أننا من وَجْدِها ... نَجِدُ العلقم في العذب الشبِمْ

نشتكي الليل ويرمينا الأسى ... إن مضى الليل بصبح مدلهمْ

فكأنَّا منهما في ملتقى ... نكبة تطغى وأخرى تستجمْ

أخْتِك الولهى عناها شَجْوُها ... ودهى أبناءَها الخطبُ المُلِمْ

فزعت تدعوك في محنتها ... مصر جلَّ الخطبُ هبِّي لا جَرَمْ

أذكريني أدركيني خَفِّفي ... ألمي بُوركت مِنْ أختٍ وأُمْ

هدَّ قومي باسم موسى ظالم ... لو رأى في القوم موسى ما رَحِمْ

زَعَمَ التوراةَ مِنْ أنصارِه ... فهي تشكو خَطْبَها مما زَعَمْ

هل رأى الألواح فاستهدى بما ... جاء فيها من عظاتٍ وحِكَمْ

أم تَلَقَّى الوحيَ أن كانَ امْرَأً ... جهل الناس جميعاً وعلمْ

رَبِّ هل قَدَّرْتَ ألا ينجلي ... ما أصاب الشرقَ من خطبٍ عَمَمْ

عــاثَ فيــهِ القــومُ حتــى مَالَــهُ — حرمـــة تُرْعَـــى وحـــقٌّ يُحتَـــرَمْ

اكشــف البأســاءَ وارحــمْ أُمُمــاً — تتلـــوَّى مـــن مِـــلالِ وَسَــــأَمْ

عمِــلَ النـــاسُ فســادوا وعَلَــوْا — وهـــي فوضـــى مـــن عبيـــدٍ وخَـــدَمْ

تحمـــلُ الضَّـــيمَ ولـــولا أنَّهـــا — تحسِـــبُ المـــوتَ حيـــاةً لم تُضَـــمْ

مــا لنــا مــن هــذه الــدنيا ســوى — غـــارةِ العـــادي وعَسْـــفِ المُحْـــتَكِمْ

ســاءنا مــن شــرها مــا نجتــوي — وعنانـــا مـــن أذاهـــا مـــا تُـــذَمْ

فســــئمناها حيـــــاةً مُـــــرَّةً — وملنـــــاهُ وجـــــوداً كالعَـــــدَمْ

رَبِّ أنــتَ العــونُ إنْ طــافَ بنــا — طـــائفُ البغـــي وأنـــتَ المُنْـــتَقِمْ

مــن يجــيرُ القــومَ إنْ صــبَّحَهُمْ — خطـــبُ عـــادٍ وثمـــودٍ في القـــدَمْ

لا يَغُـــرَّنَ قويّـــاً جُنْـــدُهُ — قـــوةٌ صَـــرْعَى وجُنـــدٌ مُنْهَـــزِمْ



ذكرى وعد بلفور...[1]

شعر: محمد مهدي الجواهري[2]

من (الوافر)

خـذي مَسـعاكِ مُثخَنـةَ الجِـراحِ ... ونـامي فـوقَ داميـةِ الصِّـفاحِ[3]

ومُـدِّي بالممـاتِ إلى حيـاةٍ ... تَسُـرُّ، وبالعَنـاءِ إلى ارتيـاحِ

وقَـرّي فـوقَ جَمـرِكِ أو تُـرَدِّي ... مِـن العُقبـى إلى أمـرٍ صُـراح

وقُـولي قـد صَـبرْتُ علـى اغتبـاقٍ ... فمـاذا لـو صَـبرتُ علـى اصْـطِباح[4]

فـإنَّ أمَـرَّ مـا أدْمَـى كِفاحـاً ... طُعـونُ الخـائِفينَ مِـن النَّجـاح

فكُـوني في سماحِـكِ بالضـحايا ... كعهـدكِ في سماحِـكِ بالأضـاحي

فـإنَّ الحـقَّ، يقطُـرُ جانبـاه ... دَمـاً، صِـنْوُ المُـرُوءةِ والسـماح

وتـأريخُ الشُّـعوبِ إذا تَبَنَّـى ... دمَ الأحـرارِ لا يمحـوهُ مـاحي



---

[1] ألقيت في الحفل الذي أُقيم في بهو "الأمانة" في بغداد يوم ذكرى وعد بلفور، وذلك عام ١٩٤٥، ونشرت في جريدة "الرأي العام" ١٣٧٢ في ٤ تشرين الثاني ١٩٤٥.

[2] شاعر من العراق ولد في مدينة النجف عام ١٨٩٩م وتوفي بدمشق عام ١٩٩٧م. من أعماله الشعرية: بريد الغربة ـ بريد العودة ـ أيها الأرق.

[3] الصفاح: السيوف.

[4] الاصطباح: الشُّرب وقتَ الصباح. والاغتباقُ: الشُّربُ عندَ المساء. أمّا ما يُشربُ فهو: الصَّبُوحُ والغَبوقُ.

"فِلَسْـطينُ" سَـلامُ اللّهِ يَسـري — علـى تلـك المشـارفِ والبطـاحِ
رأيتُـكِ مِـن خِـلال الفَجـرِ يُلْقـي — علـى خُضْـرِ الرُّبـا أحلـى وِشـاحِ
أطَـلَّ "النَسـرُ" مُنتصبـاً عليـهِ — فهـبَّ الـدِّيكُ يُنـذِرُ بالصِّـياحِ[1]
يـؤوبُ الليـلُ منـه إلى جَنـاح — وتبـدو الشَّـمسُ منـه علـى جَنـاحِ
وعَـينُ الفجـرِ تَـذري الـدمعَ طَـلاًّ — وتَمسَـحُهُ بمِنـديلِ الصَّـباحِ
وأنفـاسُ المُـروجِ معطَّـراتٌ — بأنفـاس الرُّعـاة إلى المَـراحِ
لَمسـتُ الـوحيَ في لحْـنِ "المثـاني" — وشِمْتُ الحـُزن في وقـع "المسـاحي"[2]
وغَنَّـى "أُرْشَـليمَ" يُعيـدُ لَحنـاً — "لـداودٍ" هَـزارٌ بالصُّـداحِ
وَحـولي مِـن شـبابِكِ أيُّ روضٍ — يـنمُّ حَدِيثُـه بشـذا الأَقـاحي
وألطـافٍ كأنفُسـهم عِـذابٍ — وأسمـارٍ، كـأوجُهِهمْ صِـباحِ
سـلاماً للعُكُـوفِ علـى التيـاحِ — وشـوقاً للظِمـاءِ إلى ارتيـاحِ[3]
وحُزنـاً أنْ يُجـرَّ الـدَّهر حُزنـاً — علـى تلـك الغَطارفـةِ الوِضـاحِ[4]
أَأُمَّ "القُـدْسِ" والتـاريخُ دامٍ — ويومُـكِ مثـلُ أمسِـكِ في الكفـاحِ
ومهـدُكِ وهـو مهـبِطُ كُـلِّ وحـيٍ — كنعشـكِ وهـو مَشـتَجرُ الرِّمـاحِ[5]

---

[1] النسر: كوكبان يشتد لمعانهما وقت الفجر.

[2] شِمْتُ: رأيت.

[3] الالتياح: شدة الشوق والعطش.

[4] مشتجر: الرماح أي مشتبكة.

[5] مشتجر: الرماح أي مشتبكة.

و"وادي التِيَـهِ" إنْ لمْ يـأوِ "موسـى" فقـد آوى الصـليبَ علـى صـلاحِ[1]

وذكـرى "بختنصَّـر" في الفيـا في يُجَـدِّدُها "ألِـنْبي" في الضـواحي[2]

فـلا تَتَخَبَّطـي فالليـلُ داجٍ وإنْ لم يَبْـقَ بُـدٌّ مِـن صـباحِ

شَـدَدْتِ عُـرى نِطاقِـكِ فاستَمري ولا يَثقُـلْ عليـكِ فَتُسـتباحي

ولا تُعْنَـيْ بنـا إنَّـا بُكـاةٌ نَمُـدُّكِ بالعويـل وبالصـياحِ

ولا تُعْنَـيْ بِنـا فالفِعـلُ جَـوٌّ مَغِـيْمٌ، عِنـدَنا والقـولُ صـاحِ

ولـن تَجِـدي كإِيّانـا نصـيراً يَـدُقُّ مـن الأسـى راحـاً بـراح!!

ولا قَومـاً يَـرُدُّون الـدَّواهي وقـد خَرِسَـتْ بألْسـنةٍ فِصـاح!

❖❖❖

أُعِيـذُكِ مِـن مَصـيرٍ نحـنُ فيـه لقـد عُـوِّذْتِ مِـن أَجَـلٍ مُتـاحِ

ووضـعٍ أمـسِ كلُّهـمُ لَـوَاهٍ بـه، واليـومَ كلُّهُـمُ لـواحِ[3]

تَنَصَّـلَ منـه زُوراً صـانِعوهُ كمولـودٍ تحـدَّرَ مِـن سِـفاح

وذمُّـوا أنَّهـم كـانوا عُكوفـاً عليـهِ في الغُـدُوِّ وفي الـرواح

وتـأريخٍ أُريـدَ لنـا ارتجـالاً فـآبَ كمـا أُرِيـدَ إلى افتضـاح

شَـحَنَّا دَفَّتيـهِ بمُغْمَضـاتٍ "كأحـداقِ المهـا مرضـى صحـاح"

وَغَلَّفْنـا مظـاهرَهُ حِسـاناً مُزَخْرَفـةً علـى صُـوَرٍ قِبـاح

---

[1] وادي التيه: الصحراء الممتدة على طول سيناء والحدود الفلسطينية ـ المصرية وفيه تاه اليهود.

[2] ألّنبي: القائد البريطاني الذي احتل القدس في الحرب العالمية الأولى.

[3] لَوَاهٍ، لَوَاحٍ: لاهون. لاحون. مفردها: اللاهي واللاحي، أي: المستهتر والعاذل.

وسُقْنا النـاسَ مُكْرَهـةً عليـه ... علـى يـدِ نـاعمينَ بـه وِقـاح
ونَصَّـبْنَا مرَوّضـةً غِلاظـاً ... علـى مـا في الطبـائِعِ مـنْ جِمـاحِ
وأحْلَلْنـاه وهـو ضـريحُ شـعبٍ ... محـلَّ الـوَحْيِ جـاءَ مـن الضُّـراح[1]
نُجرِّعُـهُ زُعافـاً ثـم نُضـفي ... عليـهِ محاسـنَ الشَّـبِمِ القَـراح[2]
ورُبَّـةَ "صَـفْقَةٍ" عُقِـدَت فكانـت ... كتحـريم الطـلاقِ علـى نِكـاح
تُـدَبَّرُ في العواصـمِ مـن مُرِيْـبٍ ... خبيـثِ الـذِّكرِ، مَطعـونِ النـواحي
تفـوحُ الخمـرُ منهـا في اخْتتـامٍ ... ويبـدُو التِّبْـرُ منهـا في افْتتـاحِ
ويُسْـفِرُ نَصُّـها المُسْـوَدُّ خِزْيـاً ... ومَظْلَمـةً عـن الغِيـد المِـلاح
و"تصـريحٍ" يُمطّطـه قـويٌّ ... كَلَـوْحِ الطّـينِ إذ يـدحوه داحِ
و"حِلـفٍ" لسـتُ أدري مِـن ذُهـولٍ ... أعـن جِـدٍّ يُـدَبَّرُ أم مِـزاح
لنـا حـقٌّ يُرجَّـى بالتمـاسٍ ... وبـاطِلُهمْ يُنفَّـذُ بالسِّـلاح
ولسـتُ بعـارِفٍ أبـداً حَليفـاً ... يهـدِّدُه حليـفٌ باكتسـاح!

❖❖❖

"فلسـطينُ" تَـوقَّيْ أنْ تكـوني ... كمـا كُنَّـا بمَدرَجَـة الرِّيـاحِ
وأنْ تضَـعي أمـورَكِ في نِصـابٍ ... يـوفَّرُ أو يُطَفَّـفُ بـاجتراح[3]

---

[1] الضراح: البيت المعمور في السماء الرابعة.
[2] الزُّعاف: السم الشديد. والشَّبِم: الماء البارد. والقَراح: العذب الصافي.
[3] الاجتراح: ارتكاب السيئات. يُوَفَّر ويُطفَّف: يُزادُ ويُنْقَصُ.

وهـــابي أن تُمَــــدَّ إليــــكِ مِنَّـــا   يــدُ المتضـــارِبين علـــى القِـــداحِ[1]

فكـــم هـــاوٍ أَجَـــدَّ لنـــا جُروحـــاً   بـــدعوى أنَّـــه آســـي الْجـــراح[2]

وأُصدِقُكِ الحديثَ فكم "حُلولٍ"   حَـــرامٍ، لُحْـــنَ في زِيٍّ مُبـــاح

"نُطَـوِّفُ مـا نُطَـوِّفُ ثُـم نـأوي   إلى بيـتٍ" أُقـيمَ علـى "اقـتراح"[3]

يُخـرَّجُ ألـفُ وجـهٍ مِـنْ حـديثٍ   ويُخْلَـقُ ألْـفُ معنـى لاصـطلاح

***

[1] القداح: هي السهم التي كان العرب في الجاهلية يقامرون بها ولها درجاتها وأصنافها وأسماؤها الخاصة.

[2] الآسي: الطبيب.

[3] التضمين من بيت للحطيئة.

أناةً بني قومي [1]

محمد العدناني[2]

(من الطويل)

أَنـاةً بـني قـومي ولا تُشْـهروا العَتْبـا ... ورأْبـاً لصَـدْع القلـبِ أَفـديكُمْ رأْبـا
ألوْمـاً علـى مـا نابنـا مـن مصـائب ... ولم نَجـترحْ إثمـاً، ولم نقـترفْ ذَنبـا
لئن كنْتم جسـمَ العروبة فـاعْلموا ... بـأنّ فِلسـطيناً لكـم كانـتِ القَلْبـا
وكنّـا لكـم دِرعـاً تقـيكم ... تَزِفُّ الأسـى والشرَّ والهولَ والجَدْبا
وذُدْنـاهمُ عـنكم ثلاثـينَ حِجـةً ... بعـزْمٍ مَحَاشُـمَّ المعاقِـل والهضْـبا
ونحـن صـمدْنا للعـدوّين وحْـدَنا ... صموداً أَثـار الكـونَ قاطبـةً عُجبـا
ورُحنـا نُـثير الحـرب شَـعْواء فَـذة ... فكنَّـا رحَاهـا والعِدا كانـت الحبّـا
ولـولا حـرابُ الإنكليـز وكيـدُهم ... ومالُ اليهـود الـوَفْرُ كالوبلِ مُنْصَبّا
وإطـلاقُ أُسْـد العـربِ آخـرَ طلقـة ... لمـا هجـروا الأمـوالَ والمنـزلَ الرحبـا
ولا يممُـوا قطـراً شـقيقاً يُجِلُّهـم ... ويلقَوْنَ فيه الجـارَ والأهْل والصَّحبا

---

[1] قال الشاعر: "أقرَّتْ هيئة الأمم المتحدة في ١٩٤٧/١١/٢٩ تقسيم فلسطين العربية إلى دولتين عربية صغيرة، ويهودية كبيرة، وقد ثبت للعرب أن عدداً كبيراً من الدول الذين وافقوا على التقسيم قد رشاهم اليهود بمبالغ طائلة فقلت هذه القصيدة".

[2] شاعر من فلسطين، ولد في مدينة (جنين)، وتوفي في لبنان في الخامس من آب /أغسطس ١٩٨١م. من أعماله الشعرية: "اللهيب، فجر العروبة، العدنانيات".

❖❖❖

تَخِـذْنا لنـا الحـربَ الزَّبـونَ حبيبـةً فلـم تَصْـبُنَا لَيلـى ولم تُلْهِنـا حبّـا

هوِينا الوَغى منذ اصْطلينا بنارِها وأَصـبحَ كـلٌّ مسـتهاماً بنـا صَـبّا

وقفنـا عليهـا مالنـا ونسـيبنا وكنّـا ـ عطاشـاً ـ نَشْـربُ الطعـن

نعـانق فيهـا البندقيـة عِفـةً وننـتظمُ الأوداء[1] والبيـدَ والهضْـبا

ولـيس لنـا إلا الزنـودُ وسـادةً إذا ما اختلسْنا النوم من ليلنا سَلْبا

وَنَـدَّرِعُ الإيمـانَ والصـبرَ والـوغى ونفـترش الغـبرا ونلتحـف السُّـحْبا

ونرتجـل الأمجـادَ في كـل مَعْـرَكٍ لتصـبحَ للتـاريخِ مِـنْ بعـدِنا كُتْبـا

❖❖❖

هَمَمـتُ بلَـومِ العُـرْبِ لومـاً مـدوِّياً على مـا بـدا مـنهمْ فـردَّتنيَ القُربـى

فـإنَّ دمـي مـنهم، وعِـزّيَ عـزُّهم وبيـتَهُمُ بـيتي، وإنْ نَزَلـوا القُطْبـا

وجُرحُهُمُ جُرحي إذا سال مَضَنِّي مـا مضَّـهم والخطـبُ يـورثني خَطبـا

لئن ثلموا حدّي شحذت حُدودَهم وإن أمْعَنـوا في البعـد زدتُّهُـمُ قُرْبـا

وإن نكثـوا عَهـدي حفِظْـتُ وإن أظْهـروا بُغضـاً غَمـرتُهم حبّـا

وإن ملـؤوا بالشَّـوك دربـي إلـيهمُ مـلأتُ لهـم وَرْداً إلى قلـبيَ الـدَّربا

وإن أنزلـوني مُجـدبا مـن بقـاعِهم وهبـتُهم قلبـاً بحـبهم خِصـباً

وإن قتلـوني قلـتُ عاشـتْ يمينُهم ولـو طَرحـوا في كـلّ باديـة إرْبـا

---

[1] الوادي: جمعها أوداء على غير قياس.

فَرُوحـي وقلـبي واللّسـانُ، ونُهْـيتي　　سـأترُكُها للعـربِ فخـرِ الـورى نهبـا

وأُوقِــفُ أشْــعاري علــى ذكــرِ　　واجعــلُ لــي دَرْءَ الأذى عــنهُمُ دأبــا

فلســتَ تــرى في خُلْقِهِـمْ ووفـائهم　　وجــرأتِهِمْ في الحــربِ مــثْلَهُمُ شَـعبا



كفر قاسم[1]

سميح القاسم[2] (من الخفيف)

رغـم ليـل الخنـى وليـل المظـالم ... حل وفـد الكفـاح يـا كُفْـرَ قاسِـمْ

رغم عَسْفِ الطاغوت يزبد سَمًّا ... رغم سد الأسلاك في الدرب جاثم

رغم حقد الرشاش يشهره الظلم ... أتينـا.. فليلعـق الخِـزْيَ حـاكم

نحن من شعبك المقيم على عهد ... الضـحايا وذكريـات المـآثم

نحن أبناؤك الأباة على الضيم ... أتينـا مـن الجليـل المقـاوم

ومـن الكرمـل الصـمود أتينـا ... لهبـاً في مرابـع البغـي حـائم

❖❖❖

يـا قبـور الأحبـاب! ألـف سـلام ... مـن قبـور عـزّت عليهـا المعـالم

أي شـيء مـن ا لعـزاء نزجـيّ؟ ... نحـن في أسـرة الحـداد تـوائم

نحـن جئنـا ، نهيـب أن تستفيقي ... فلتلبي النداء... يا كفر قاسم![3]

---

[1] عام ١٩٦٥ توجه الشباب العربي في الأرض المحتلة إلى كفر قاسم للاحتفال بذكرى المجزرة الدامية التي وقعت هناك في أكتوبر ١٩٥٦ وراح ضحيتها أكثر من خمسين امرأة وطفلة؛ إلا أن الحكم العسكري منع القادمين من دخول القرية وإقامة المأتم فتجمع القادمون خارج الأسلاك المضروبة حول القرية حيث ارتجل الشاعر فيهم هذه القصيدة.

[2] ولد في الزرقاء بفلسطين عام (١٩٢٩م) وهو ثاني شعراء الأرض المحتلة شهرة بعد محمود درويش، ومن أعماله الشعرية (أغاني الدروب، ودخان البراكين؛ ورحلة السراديب الموحشة)، وله بعض الأعمال القصصية...

[3] النص مأخوذ من (أدب المقاومة في فلسطين المحتلة) ص ١١٨.

أحبّ وَلكِن [1]

توفيق زياد[2]

(من الوافر)

أحب لو استطعتُ بلحظة
أن أقلِب الدنيا لكم رأساً على عقبِ
واقطع دابرَ الطغيانِ
أحرق كلَّ مغتصبِ
وأوقد تحت عالَمنا القديمِ
جهنماً مشبوبة اللهبِ
وأجعل أفقر الفقراء
يأكلُ في صحونِ الماسِ والذهبِ
ويمشي في سراويلِ
الحريرِ الحُرِّ والقصبِ
وأهدم كوخَه، أَبني له
قصراً على السحبِ

❖

---

[1] النص مأخوذ من (أدب المقاومة في فلسطين المحتلة) ص ٩٦ ـ ٩٧.

[2] شاعر فلسطيني، ولد في مدينة الناصرة في (١٩٢٩/٥/٧م) وتوفي بحادث طريق في (١٩٩٤/٧/٥م) وصدرت أعماله في (ديوان توفيق زيَّاد).

أحب لو استطعت بلحظةٍ

أن أقلب الدنيا لكم رأساً على عقبِ

ولكنْ للأمورِ طبيعةٌ

أقوى من الرغباتِ والغضبِ

نفادُ الصبرِ يأكلكم فهل

أدّى إلى أَرَب؟

❖

صعوداً أيها الناس الذين أحبّهم

صبراً على النوب

ضعوا بين العيون الشمس

والفولاذ في العصبِ

سواعدكم تحقق أجمل الأحلام

تصنع أعجب العجب!

من لاجئ إلى أمه

راشد حسين[1]

(من الكامل)

الخيمـــةُ الخمســـون مـــن جهـــة اليســـار هنـــا حيـــاتي

فيهـــا ـ ألا تـــدرين مـــا فيهـــا؟ بيـــادر ذكريـــاتي

ذكـــرى تحـــدثني عـــن الـــدار الملوَّنـــةِ الجهـــاتِ

ذكـــرى تُحـــدِّثُ عـــن أخـــي "ســـامي" [وآهـــاتي][2]

ذكـــرى العـــبير المشمشـــي وذكريـــات السُّـــنبلاتِ

❖❖❖

ولخـــيمتي بابـــان يـــا أمـــي كـــأبواب العـــذاب

بـــاب يقـــود إلى الجحـــيم إلى الشـــتائم والســـباب

نحـــو الخيـــام العابســـات كـــبعض أكـــداس الســـحاب

وهنـــاك في جهـــة الســـماء علـــى جـــبين الســـقف بـــابي

تبـــدو النجـــوم خلالـــه كـــاللاجئين بـــلا ثيـــاب

---

(1) شاعر من فلسطين ولد بمدينة مصمص في المثلث الشمالي سنة ١٩٣٦م، مات اختناقاً في شقته في الولايات المتحدة الأمريكية في ١٩٧٧/٢/٢م، من أعماله الشعرية: مع الفجر، صواريخ، أنا الأرض لا تحرميني المطر.

(2) في ديوان العودة ١٩٣ (وعن عَبَثٍ) ولعل الوجه ما أثبتناه.

❖❖❖

مجنونةٌ واللّه يا أُمَّاهُ أفكاري العجيبه

بالأمس قالت لي: تعال نزور دارَكُمُ القريبه

أنسيتَها؟ أنسيتَ أمَّكَ والأقاربَ والخطيبه؟

أنسيتَ عطرَ اللوزِ في شفة الحواكير الرطيبه؟

لم أنسها! لم أنسها! واللّه يا أمي الحبيبه!

❖❖❖

وربطتُ يا أمي حبالَ الشوق في قلبي الجريح

يا ويحَ هذا الشوقِ مندفعاً مِنَ البلد الفسيح

مِنْ خشخشات براعم الزيتون والحقل المليح

نحوَ الحدود يشدُّني شدَّ القتيل إلى ضريح

أو مثلما شُدَّتْ إلى خشب الصليب يد المسيح

❖❖❖

ومشيتُ نحو الغربَ آمَلُ أن أراكِ فذاك عيدي

والشمس مالت للمغيب بطيئةً فوق الحدود

فكأنها متسللٌ يخشى "مداعبةَ" الجنودِ

وتحركَتْ شفةُ البنادق بالشتائمِ والوعيدِ

فرجعتُ أركض خائفاً وبصقتُ في وجه الوجود

❖❖❖

اللَّيــــلُ يــــا ربَّــــاهُ ثلـــجٌ أَسْـــودٌ قـــد هـــدَّ جســـمي

والصــــبح شــــرطيٌّ غريـــــرٌ لا يـــزال يحـــب شـــتمي

يـــا ليـــتني يــــا ربِّ دمعـــةُ فرحـــةٍ مـــن عـــين أمـــي

يـــا ليـــتني يــــا ربِّ ســـنبلةٌ بحقـــلِ أبـــي وعمـــي

يـــا ليـــتني يــــا ربِّ!.. لكـــن "ليـــتني" يَنْبُـــوعُ همـــي!



المدينة المحاصرة

معين بسيسو[1]

من (الكامل)

البحــــرُ يَحكـــي للنجـــومِ حكايـــةَ الـــوطنِ السَّـــجينْ
واللّيـــــلُ كالشَّـــــحاذِ يَطـــرقُ بالــــدُّموعِ وبـــــالأنينْ
أبـــوابَ غـــزةَ وهـــي مغلقـــةٌ علـــى الشّـــعبِ الحـــزينْ
فيحـــرِّكُ الأحيـــاءَ نـــاموا فـــوقَ أنقـــاضِ الســـنينْ
وكـــأنّهم قـــبرٌ تـــدقُّ عليـــهِ أيـــدي النابشـــينْ

❖❖❖

وتكـــادُ أنـــوارُ الصَّـــباحِ تُطِـــلُّ مـــن فَـــرطِ العـــذابْ
وتطـــاردُ اللّيـــلَ الـــذي مـــا زالَ موفـــورَ الشـــبابْ
لكنّـــهُ مـــا حـــانَ موعـــدُها ومـــا حـــانَ الـــذهابْ
المـــاردُ الجبّـــارُ غَطّـــى رأسَـــهُ العـــالي الـــترابْ
كـــالبحرِ غَطَّـــاهُ الضَّـــبابُ ولـــيسَ يقتلـــهُ الضـــبابْ

---

[1] شاعر من فلسطين، ولد في مدينة غزة عام ١٩٢٦م، وتوفي في العاصمة البريطانية عام ١٩٨٤م، من أعماله الشعرية: ما رد من السنابل، الأشجار تموت واقفة، قصائد على زجاج النوافذ.

❖❖❖

ويخاطبُ الفجرُ المدينةَ وهي حيرى لا تجيبْ

قُدَّامَها البحرُ الأُجاجُ ومِلؤها الرملُ الجديبْ

وعلى جَوانِبها تدبُّ خُطى العدوِّ المستريبْ

ماذا يقولُ الفجرُ هل فُتِحَتْ إلى الوطنِ الدروبْ

فَنُوَدِّعُ الصحراءَ حينَ نسيرُ للوادي الخصيبْ؟

❖❖❖

لسنابلِ القمح التي نَضِجَتْ وتنتظرُ الحصادْ

فإذا بها للنَّارِ والطيرِ المشرَّدِ والجرادْ...

ومَشى إليها الليلُ يُلبِسُها السوادَ على السوادْ

والنّهرُ وهو السائحُ العَدَّاءُ في جَبَلٍ ووادْ

ألقى عصاهُ على الخرائبِ واستحالَ إلى رمادْ

❖❖❖

هذي هي الحسناءُ غزة في مآتِمِها تدورْ

ما بينَ جَوْعى في الخيامِ وبينَ عَطْشى في القبورْ

ومُعذَّبٍ يقتاتُ من دمِهِ ويعتصرُ الجذورْ

صورٌ مِنَ الإذلال فاغضبْ أيها الشعبُ الأسيرْ

فسياطُهمْ كتبتْ مصائِرنَا على تلكَ الظهورْ



أقرأتَ أمْ مازلتَ بكَّاءً على الوطنِ المُضاعْ؟

الخوفُ كَبَّلَ ساعديْكَ فَرحتَ تجتنبُ الصِراعْ

وتقولُ إنّي قدْ غرِقتُ وشَقّتِ الريحُ الشراعْ

يا أيّها المدحورُ في أرضٍ يضجُّ بها الشعاعْ

أُنْشُدْ أناشيدَ الكفاحِ وسرْ بقافلةِ الجياعْ



مقتل كليب
والوصايا العشر [1]

أمل دنقل[2]

من (المتقارب)

(١)

لا تُصالحْ!

..ولو منحوك الذَّهبْ

أترى حين أفقَأ عينيكَ،

ثم أُثْبتُ جوهرتين مكانهما..

هل ترى..؟

هي أشياءُ لا تشترى

ذكرياتُ الطفولة بين أخيكَ وبينك

---

[1] نظر "كليب" حواليه وتحسر، وذرف دمعة وتعبّر ورأى عبداً واقفاً فقال له: أريد منك يا عبد الخير قبل أن تسلبني أن تسحبني إلى هذه البلاطة القريبة من هذا الغدير، لأكتب وصيتي إلى أخي الأمير سالم الزير فأوصيه بأولادي وفلذة كبدي..

[2] شاعر من مصر، ولد في قرية القلعة بالقرب من مدينة قنا عام ١٩٤٠، وتوفي في الحادي والعشرين من مايو ١٩٨٣م. من أعماله الشعرية: البكاء بين يدي زرقاء اليمامة، مقتل القمر، العهد الآتي.

حسُّكما ـ فجأة ـ بالرجولة ،

هذا الحياءُ الذي يكبتُ الشوق.. حين تعانقه ،

الصمتُ ـ مُبْتَسِمينِ ـ لتأنيب أمكما..

وكأنكما

ما تزالان طفلين!

تلك الطمأنينة الأبدية بينكما :

أنَّ سيفَان سيفُك...

صوتانِ ... صوتك

أنك إن متَّ:

للبيت ربٌّ

وللطفل أبْ

هل يصير دمي ـ بين عينيك ـ ماء؟

أتنسى ردائي الملطَّخَ بالدماء؟!

تلبس ـ فوق دمائي ـ ثياباً مطرزة بالقصب؟

إنها الحرب

قد تثقل القلب..

لكن خلفك عارَ العرب..

لا تصالح..

ولا تَتَوَخَّ الهرب!

(٢)

لا تصالح على الدم.. حتى بدمْ!

لا تصالحْ! ولو قيل رأسٌ برأسْ

أكلُّ الرؤوس سواء؟

أقلب الغريبِ كقلبِ أخيك؟!

أعيناه عينا أخيك؟

وهل تتساوى يدٌ.. سيفُها كان لكْ

بيَدٍ سيفُها أثكلك؟

سيقولون:

جئناك كي تحقن الدم..

جئناك كنْ - يا أميرُ - الحَكَمْ

سيقولون:

ها نحن أبناءُ عمْ

قل لهم إنهم لم يراعوا العمومة فيمن هلك

واغرس السيف في جبهة الصحراء..

إلى أن يجيب العدم

إنني كنت لك

فارساً

وأخاً

وأباً

ومَلِكْ!

(٣)

لا تصالح..

ولو حَرَمتْك الرُّقادْ

صرخاتُ الندامة.

وتَذَكَّر..

(إذا لان قلبكَ للنسوة اللابساتِ السوادَ ولأطفالهن الذين

تخاصمُهم الابتسامة)

أن بنت أخيك "اليمامة"

زهرةٌ تتسربل في سنوات الصبا -

بثياب الحداد..

كنتُ، إِن عدتُّ:

تعدو على درج القصر،

تمسك ساقيَّ عند نزولي...

فأرفعها - وهي ضاحكة -

فوق ظهر الجواد.

هاهي الآن.. صامتة

حرمتها يدُ الغدرِ:

من كلمات أبيها

ارتداءَ الثيابِ الجديدة

من أن يكونَ لها - ذاتَ يومٍ - أخٌ!

من أبٍ يتبسَّم في عرسها..

وتعودُ إليه إذا الزوجُ أغضبها..

وإذا زارها.. يتسابق أحفادُه نحو أحضانه،

لينالوا الهدايا..

ويلهوا بلحيته (وهو مستسلم)

ويشدّوا العمامة..

لا تصالحْ!

فما ذنبُ تلك اليمامة

لترى العُشّ محترقاً.. فجأة

وهي تجلس فوق الرماد؟!

(٤)

لا تصالح

ولو توَّجوك بتاج الإمارة.

كيف تخطو على جثة ابن أبيك..؟

وكيف تصيرُ المليك..

على أَوْجُهِ البهجةِ المستعارة؟

كيف تنظر في يد من صافحوك..

فلا تبصر الدم..

في كل كَف؟

إن سهماً أتاني من الخلف..

سوف يجيئك من ألف خلف.

فالدم - الآن - صار وساماً وشارة

لا تصالح،

ولو توجوك بتاج الإمارة

إن عرشك: سيف

وسيفك: زيف

إذا لم تَزِنْ - بذؤابته - لحظات الشرف

واسْتَطَبْتَ - التَّرَفْ

(٥)

لا تصالحْ

ولو قالَ من مال عند الصدام

"ما بنا طاقةٌ لاِمْتِشاقِ الحسام..."

عندما يملأ الحق قلبك:

تندلع النار إن تتنفَّسْ

ولسانُ الخيانةِ يخرسْ

لا تصالحُ،

ولو قيل ما قيل من كلمات السلام

كيف تستنشق الرئتان النسيمَ المدنس؟

كيف تنظر في عيني امرأة..

أنت تعرف أنك لا تستطيع حمايتها؟

كيف تصبح فارسها في الغرام؟

كيف ترجو غداً.. لوليدٍ ينام..؟

كيف تحلُم أو تتغنى بمستقبلٍ لغلام

وهو يكبر ـ بين يديك ـ بقلب مُنَكَّس؟!

لا تصالحْ،

ولا تقتسم مع من قتلوك الطعام.

وارْوِ قلبك بالدم..

وارْوِ الترابَ المقدس..

وارْوِ أسلافك الراقدين..

إلى أن تَرُدَّ عليك العظام!

(٦)

لا تصالحْ،

ولو ناشدَتْك القبيلة

باسم حزن "الجليلة"

أن تسوق الدهاءَ،

وتُبْدِي ـ لمن قصدوك ـ القبول

سيقولون:

ها أنت تطلب ثأراً يطول.

فخذ ـ الآن ـ ما تستطيع:

قليلاً من الحق:

في هذه السنوات القليلة

إنه ليس ثأرَكَ وحدك،

لكنه ثأرُ جيلٍ فجيل

وغداً..

سوف يولد من يَلْبَسُ الدرعَ كاملةً،

يوقد النار شاملة،

يطلب الثأر

يَسْتَوْلد الحقَّ،

من أضلع المستحيل.

لا تصالحْ،

ولو قيل إن التصالح حيلة.

إنه الثأر

تَبْهَت شعلته في الضلوعْ..

إذا ما تَوَالت عليها الفصول..

ثم تبقى يدُ العار مرسومة (بأصابعها الخمس)

فوق الجباه الذليلة!

(٧)

لا تصالحْ ولو حذَّرتك النجوم

ورمى لك كهَّانها بالنبأ..

كنت أغفر لو أنني مِتُ..

ما بين خيط الصواب وخيط الخطأ

لم أكن غازياً،

لم أكن أتسللُ قرب مضاربهم

أو أحومُ وراء التخوم

لم أمدّ يداً لثمار الكروم

أرضَ بستانهم لم أطأ

لم يصِحْ قاتلي بي. "انْتبه"!

كان يمشي معي..

ثم صافحني..

ثم سار قليلاً

ولكنه في الغصون اختبأ!

فجأة:

ثقبتني قشعريرة بين ضلعين

واهتزّ قلبي - كفقاعة - وانْفثأ

وتحاملتُ، حتى احتَمَلْتُ على ساعديَّ

فرأيت: ابن عمي الزنيم

واقفاً يتشفَّى بوجه لئيم

لم يكن في يدي حربةٌ،

أو سلاحٌ قديم،

لم يكن غيرُ غيظي الذي يتشكى الظمأ

(٨)

لا تصالحْ،

إلى أن يعود الوجودُ لدورته الدائرة

النجوم. لميقاتها

والطيور.. لأصواتها

والرمال.. لذرّاتها

والقتيل لطفلته الناظرة

كل شيءٍ تحطم في لحظة عابرة

الصبا ـ بهجة الأهل ـ صوت الحصان ـ التعرف بالضيف ـ همهمة

القلب حين يرى برعماً في الحديقة يذوي ـ الصلاة لكي ينزل المطر الموسمي ـ مراوغة القلب

حين يرى طائر الموت

وهو يرفرف فوق المبارزة الكاسرة

كل شيءٍ تحطم في نزوة فاجرة

والذي اغتالني: ليس ربّاً

ليقتلني بمشيئته

ليس أنبل مني.. ليقتلني بسكِّينته،

ليس أمهر مني، ليقتلني باستدارته الماكرة.

لا تصالحْ،

فما الصلح إلا معاهدة بين ندَّينْ..

(في شرف القلب)

لا تُنْتَقَصْ

الذي اغتالني محضُ لصْ

سرق الأرضَ من بينِ عينيَّ

والصمتُ يطلق ضحكته الساخرة!

لا تصالحْ،

ولو وقَفَت ضد سيفك كلُّ الشيوخ.

والرجال التي ملأتها الشروخ،

هؤلاء الذين يحبون طعم الثريد،

وامتطاء العبيد،

هؤلاء الذين تدلَّت عمائمهم فوق أعينهم،

وسيوفهم العربية قد نَسِيَتْ سنواتِ الشموخ

(٩)

لا تصالحْ،

فليس سوى أن تريد

أنت فارس هذا الزمان الوحيد

وسواك.. المسوخ!

(١٠)

لا تصالح

لا تصالح

❖❖❖

نوفمبر تشرين الثاني ١٩٧٦

سأَرْجعُ

حسن البحيري[1]

من (المتقارب)

فِلَسْــــطِينُ يـــــا سِــــرَّ دُنْيــــا وُجُــــودي
ويَــــــا بَسْـــــمَةَ النُّـــــورِ في مَـــــأمَلي

ويـــا نَـــبْضَ مَجْـــرَى دَمِــــي في عُروقـــــي
ويَــــــا سَلْسَـــــلَ الحُـــــبِّ في مَنْهَلـــــي

لَـــــئِنْ حَــــالَ دُونَـــكِ قَهْـــــرُ الحَديـــــدِ
ودُونَ رُجـــــــــوعي إلى مَنْزِلــــــــــي

فَـــــإنّي وَلَــــوْ عَبْــــرَ قَصْـــفِ الرُّعــــودِ
سَــــــأَرْجِعُ يَومــــــاً إلى "كَرْمِلـــــــي"[2]

---

[1] شاعر من فلسطين، ولد في مدينة حيفا عام ١٩٢١م، وتوفي في ١٩٩٨/٢/٢٣م بدمشق، من أعماله الشعرية: الأصائل والأسحار، حيفا في سواد العيون، جنة الورد.

[2] الكَرْمِل: بلدة من بلدات حيفا في فلسطين؛ وهي منسوبة إلى جبل الكرمل المشرف في حيفا....

سَـــــأَرْجِعُ مَهْمــــــا تَرامَــــــى البَعيــــــدُ

ومَهْمــــــا تَوالَــــــتْ دُجَــــــى الأزْمُــــــنِ

لأحْمِــــــلَ أرْضَــــــكِ بَــــــينَ الضُّــــــلوعِ

وألْــــــثُمَ تُرْبَــــــكِ بــــــالأجْفُنِ

وإنْ وَقَفَــــــتْ شــــــامخاتُ الجبــــــالِ

أمــــــامَ رُجُــــــوعي إلى مَــــــوطِني

فَهِمَّــــــةُ رُوحــــــيَ لَــــــنْ تَنْــــــثَني

وهَامَــــــةُ عَزْمِــــــيَ لَــــــنْ تَــــــنْحَني

❖❖❖

وإمَّــــــا تَــــــوَلَّى رَبيــــــعُ الحَيَــــــاةِ

وَصَــــــوَّحَ مِنْــــــهُ نَــــــدِيُّ الزَّهَــــــرْ

وَحُــــــمَّ الــــــرَّدَى أجَــــــلاً في كتَــــــابٍ

بِــــــهِ مِــــــنْ مَنَايَــــــا البَرايَــــــا سُــــــوَرْ

فَـــــلا تَيْأَســــــي مِـــــنْ إِيـــــابِي إِلَيْــــكِ
وإِنْ غَيَّبَــــــــتْني طَوايـــــــا الخُفَـــــــرْ

فَـــــإِنِّي وَلَـــــو حَفْنَــــــةً مِـــــنْ تُــــــرابٍ
سَـــــــــأَرْجِعُ فِي قَبَضَــــــــاتِ القَـــــــدَرْ

❖❖❖

دمشق - سورية - شتاء ١٩٧٠م.

أوسلو

سليم الزعنون[1]

من (البسيط)

تجـيءُ "أوسـلو" بجـنح الليـل غانيـةً ... والوجه يخفي عن الأنظار أدرانا

يـا ويلنـا!، هـل تعجلنـا؟ فأرهقنـا ... خفـاء مـا تحتـوي زورا وبهتانـا[2]

يـا ويلنـا مـن غمـوض بـات يرهقنـا ... وبات يسعف عند البحث أعدانا!!

فالقدس معركةٌ كبرى وقد رفعوا ... فيهـا الشـواهق أسـوارا وبنيانـا[3]

وأين من ضفَّةٍ تلك الوعود مضت ... كمـا غيرُهـا وَهْمـاً ونسـيانا؟

أخشى عليها من التقطيع فانتبهوا ... إن الذي يفرض الأحداثَ أقوانا[4]

"غيتـو"[5] بغـزة مـا يبغونـه بـدلاً ... عـن دولـة الحـق تُبقـي القـدسَ

يـا صـاحبَ الأمـر حـاذرْ مـن ... واقـرأْ تجـد أنَّ في القـرآن تبيانـا

إمـا تخـافَنَّ مـن قـومٍ خيـانَتَهُمْ ... فانبذْ إليهم ومَنْ في الليل يقظانا

---

[1] شاعر من فلسطين، ولد عام ١٩٣٣م، من أعماله الشعرية يا أمة القدس، وهكذا نطق الحجر.

[2] في آخر يوم أحضروا خبيراً قانونياً مصرياً لم تسنح له الفرصة الكافية أن يدرس إعلان المبادئ بروية تكشف عيوبها. (ديوان الشاعر).

[3] قلاع وعمارات ضخمة.

[4] كانتونات وفق خطة آاون.

[5] الغيتو: هو العَزْل؛ واستعارة لبيان الممارسة البشعة للدوائر الصهيو ـ أمريكية التي تصر على حصار الشعب الفلسطيني في قطاع غزة، وعزله عن وطنه أولاً وأمته ثانياً، والعالم ثالثاً، لكي يموت بطيئاً بطيئاً..

مـا عاهـدوا العهـد إلا راح ينقُضُـه — منهم فريقٌ يـدير الأمـرَ شـيطانا

يا كلَّ من عارضوا هاتوا سيوفَكُمُ — فـالأرضُ تشـهد أتراحـاً وأحزانـا

والزحـفُ في الأرضِ لازالـت وسـائلُه — كالسُّمِّ يضربُ أضـلاعاً وشـريانا

قـد خـدَّرونا بتأجيـلٍ ولـيس لـه — لدى القويِّ سوى وعدٍ[1] وقد هانا

❖❖❖

---

[1] إشارة إلى الوعود الأمريكية الكاذبة بمساندة الشعب الفلسطيني.

انتفاضة الأقصى

أحمد بن عبد القادر[1]

من (الكامل)

"شـــارونُ" قِــفْ واطلـــبْ طريقــكَ للـــورا

فـدمُ الطفولـة في الضـمائرِ صَرْصَـرا[2]

أَتُـــدَنِّسُ الأقصــــى وبعـــضُ جراحِنــــا

(صـبرا) و(شـاتيلا)[3] وننسـى مـا جـرى؟

ويُجيبــــكَ الزلـــزالُ دمـــدمَ صــــاعداً

وَيُـــــردِّدُ الأولادُ: خيــــبرَ، خيــــبرا

ورفيــــفُ أجنحـــــةِ البُــــراقِ، نســــيمُهُ

يتلقَّـــفُ الأرواحَ مـــن فـــوقِ الـــذُّرا



---

[1] شاعر من موريتانيا، ولد في "أبي تلميت" عام ١٩٤١م.

من أعماله: ثلاث روايات وديوان شعر.

[2] صَرْصَرَ: صَوَّتَ بشدّة.

[3] (صبرا) و (شاتيلا) مجزرتان ارتكبهما الجيش الصهيوني حين اقتحم بيروت، وعاث فساد في المخيمين اللذين وقعت فيهما المجزرتان عام (١٩٨٢م).

طـــــوبى لشـــــعبٍ لا يهـــــونُ تنسَّـــــمتْ
آمالُـــــــه وردَ الشـــــــهادةِ عنـــــبرا
مـــــن ذا يلـــــوم البـــــاذلين حيـــــاتَهم
لحيـــــاتهم شـــــرفاً أجـــــلَّ وأظهـــــرا؟
أو يَزجُـــر الزحـــفَ المضـــرّجَ بعـــد مـــا
حلفـــتْ نواصـــي الخيـــلِ أنْ تتعطَّـــرا
خمســـــونَ عامـــــاً والثَّعالـــــبُ شُـــــرَّعٌ
وتبـــولُ، تَنتهـــكُ المقـــامَ الأطهـــرا!!
خمســـــونَ عامـــــاً والزَّمـــــانُ مُبـــــنَّجٌ
أَفَلَـــم يَحِـــنْ لـــلأرضِ أنْ تَتَطهَّـــرا؟

❖❖❖

"بـــاراكُ"[1] يـــا رجـــل الـــدِّفاعِ وجيشـــهِ
ونـــراكَ تَرفُـــلُ في النَّياشِـــنِ مَظهَـــرا
مـــاذا منحـــتَ مـــن السَّـــلامِ تَكرُّمـــاً
وتَبجُّحـــــاً، وتَزلُّفـــــاً، وتَجبُّـــــرا؟
يـــا حـــارقَ الزيتـــونِ والأطفـــالِ والْـــ
أَزهـــارِ تَبْسُـــمُ للسَّـــما أنْ تُســـطرا

---

[1] إشارة إلى (إيهود باراك) وزير الدفاع الصهيوني ـ آنذاك ..

(فينــيسُ)[1] (شاكســبيرُ) أعلــمُ بالــذي

منحــتْ جــدودُكَ مِــنْ مَكــارمَ للــوَرى

فاقتــلْ كمــا شــاءتْ بنــو صــهيونَ أنْ

تَــــدعَ الـــبريءَ مُجنـــدَلاً ومُعفَّــــرا

واذبــــحْ تَـــــرَ الطُّوفـــانَ أوَّلَ قطــــرةٍ

واذبـــح تـــرَ الطوفـــانَ يُزْبِـــدْ أَبْحُـــرا

لا تَغـــــترِرْ، لبنـــــانُ أمسُـــكَ شـــاهدٌ

والقـــدسُ يومُـــكَ قـــد أطـــلَّ وزمجـــرا

ولقــــدْ يُطيـــلُ اليـــومُ غيبـــةَ شمسِـــهِ

وتقـــولُ بعـــد مُـــروره مـــا أقصـــرا!

بــــرح الخفـــاءُ فـــلا ســـرابَ لـــواردٍ

والحـــقُّ أحكـــمُ والمُقـــدَّرُ قـــدْ جَـــرى

أقســـمتُ بالغضـــبِ الـــذي مـــلأَ الـــدُّنا

عربــــاً وإســــلاماً، ودَكَّ وفَجَّـــــرا

أنْ ســـوفَ تَرجـــعُ للطَّراطـــر بائعـــاً[2]

وتجـــوسُ في الأســـواق تَطلـــبُ مَتْجـــرا

ونعـــودُ أرحـــمَ مـــن ســـوانا بـــالأُلى

---

[1] إشارة إلى مسرحية "تاجر البندقية" لشكسبير.

[2] الطراطر: جمع طرطور: القلنسوة.

ذلّــوا ، وأعـــرقَ في الحضـــارة مَفْخَــرا

❖❖❖

المصادر والمراجع

١. إبراهيم طوقان (حياته ودراسة فنية في شعره) ـ د. محمد حسن عبد الله ـ مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ـ الكويت ـ ٢٠٠٢م.

٢ ـ الآثار الشعرية ـ كمال ناصر ـ أعدها وقدَّم لها إحسان عباس ـ المؤسسة العربية للدراسات ـ بيروت ـ ط١ ـ ,١٩٧٤

٣ ـ أحجار على رقعة الشطرنج (التطبيق العملي لبروتوكولات حكماء صهيون) ـ وليام جاري كار ـ عرض وتعليق مجدي كامل ـ دار الكتاب العربي ـ دمشق والقاهرة ـ ط١ ـ ٢٠١١م.

٤ ـ اختراع الشعب اليهودي ـ شلومو ساند ـ المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار) ـ رام الله ـ أيلول ٢٠١٠م.

٥ ـ أدب الحرب ـ حنا مينه ونجاح العطار ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٧٦م.

٦ ـ أدب المقاومة ـ غالي شكري ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ـ ١٩٧٠م.

٧ ـ أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨ ـ ١٩٦٦. غسان كنفاني ـ مؤسسة الأبحاث العربية (مؤسسة غسان كنفاني الثقافية ـ بيروت ـ ١٩٦٦م ـ ط١ ـ و ١٩٨٧م ـ ط,٣

٨ ـ أدب النكبة في التراث العربي ـ محمد حمدان ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٤م.

٩ ـ الاستيطان الإسرائيلي في فلسطين بين النظرية والتطبيق ـ د. نظام محمود بركات ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت.

١٠ ـ إسرائيليات ـ عدد خاص عن المقاومة ـ رقم ٥١ ـ اللجنة الشعبية العربية السورية لدعم الشعب الفلسطيني ومقاومة المشروع الصهيوني ـ دمشق ـ ٢٠١٠/٥/١٢م.

١١ ـ إيليا أبو ماضي (الأعمال الشعرية الكاملة) ـ جمع وتقديم د. عبد الكريم الأشتر ـ مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين ـ الكويت ـ ٢٠٠٨م.

١٢ ـ البحيري (موقف ورسالة) ـ إسماعيل مروة ـ دار البشائر للطباعة والتوزيع ـ دمشق ـ ١٩٩١م.

١٣ ـ بوح (قصائد مختارة) ـ نزار بني المرجة ـ إصدار خاص ـ دمشق ـ ٢٠١١م.

١٤ ـ جريدة تشرين ـ دمشق ـ العدد ١١١٣٠ ـ الاثنين ٢٠١١/٦/٢٧م، والعدد ١١١٣٩ ـ الخميس ٢٠١١/٧/٧م.

١٥ ـ جريدة الثورة ـ دمشق ـ العدد ١٤٥٦٦ ـ الخميس ٢٠١١/٦/٢٣م.

١٦ـ جمالية المكان ـ غاستوف باشلار ـ ترجمة غالب هلسا ـ ١٩٨٤م.

١٧ ـ حكمة العروبة ـ الدكتور عفيف البهنسي ـ دار الشرق للطباعة والنشر ـ دمشق ـ ط١ ـ ٢٠١٢م.

١٨ ـ دراسات في أدب النكبة (الرواية) ـ د. عبد الكريم الأشتر ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٧٥م.

١٩ ـ دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي ـ حسين مروة ـ بيروت ـ ١٩٨٦م.

٢٠ ـ دولة اليهود ـ تيودور هرتزل ـ ترجمة مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت ـ ١٩٩٧م.

٢١ ـ ديوان إبراهيم طوقان (مقدمة لفدوى طوقان) ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار القدس ـ بيروت ـ ١٩٧٥م.

٢٢ ـ ديوان الجواهري ـ محمد مهدي الجواهري ـ أشرف على الطباعة عدنان درويش ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ١٩٧٩م.

٢٣ ـ ديوان راشد حسين ـ المجموعة الشعرية (أنا الأرض لا تحرميني المطر) تقديم د. عز الدين المناصرة ـ دار العودة بيروت ـ ١٩٨٧م.

٢٤ ـ ديوان سميح القاسم ـ دار العودة ـ بيروت ـ ١٩٧٠.

٢٥ ـ ديوان القروي ـ رشيد سليم الخوري ـ مديرية الثقافة العامة ـ وزارة الإعلام ـ بغداد ـ دار الحرية للطباعة ١٩٧٣م.

٢٦ ـ ديوان محمود درويش ـ دار الحرية ـ بغداد ـ ط٢ ـ ٢٠٠٠م.

٢٧ ـ ديوان الوطن المحتل ـ يوسف الخطيب ـ دار فلسطين ـ دمشق ـ ١٩٦٨م.

٢٨ ـ الشعر الفلسطيني المقاوم في جيله الثاني (من قصيدة الثبات إلى قصيدة الانتفاضة) ـ طلعت سقيرق ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ١٩٩٣م.

٢٩ ـ سورية (الاستهداف والمؤامرة) ـ د. حسين جمعة ـ تكنو آرت للطباعة والإعلان ـ دمشق ـ ٢٠١٢م.

٣٠ ـ الصهيونية ـ منير ماشوش ـ دار المسيرة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٧٩م.

٣١ ـ عائد إلى حيفا وأعمال أخرى ـ غسان كنفاني ـ تقديم د. حسين جمعة ـ اختيار فادية غيبور ـ سلسلة كتاب الجيب ٣١ ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٩م.

٣٢. علي محمود طه (شعر ودراسة) ـ المحامي سهيل أيوب ـ دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ـ دمشق ـ ١٩٦٢م.

٣٣ ـ عودة الغرباء ـ شعر ـ هارون هاشم رشيد ـ المكتب التجاري ـ بيروت ـ ١٩٥٦م.

٣٤ ـ غسان كنفاني ـ شهادات وصور ـ إعداد الحكم النعيمي ـ مؤسسة غسان كنفاني الثقافية ـ بيروت ـ ٢٠٠١م.

٣٥ ـ الغيتو الصهيوني ـ يوسف سامي اليوسف ـ دار الكرامة ـ دمشق ـ د/تا.

٣٦ ـ قرنفل أحمر... لأجلها ـ قصص قصيرة ـ حسن حميد ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ١٩٩٠م.

٣٧ ـ كفاح عرب فلسطين ـ عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) ـ منشورات مؤسسة اللاجئين الفلسطينيين العرب ـ دمشق ـ آب ١٩٦٤م.

٣٨ ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٥٥م.

٣٩ ـ لفلسطين أغني ـ شعر ـ حسن البحيري ـ مطبعة دار الحياة ـ دمشق ـ ١٩٧٩م.

٤٠ ـ المأزق العربي (دراسة حول المشاريع المطروحة في المنطقة...) ـ سهيل عروسي ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٥م.

٤١ ـ المؤامرة ومشروع الفتنة والتفتيت ـ د. حسين جمعة ـ مجلة الفكر السياسي العدد ـ ٤٢ ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ شتاء ٢٠١٢م.

٤٢ ـ مجلة إلى الأمام ـ الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ دمشق ـ العدد ٢٤١٩ ـ تموز ٢٠١٢م.

٤٣ ـ مجلة زهرة المدائن ـ العدد ٢٦ ـ دمشق ـ أيار ـ ٢٠١٢م.

٤٤ ـ مجلة الطلائع ـ تصدر عن طلائع حرب التحرير الشعبية (قوات الصاعقة ـ العدد ١٥٧٣ ـ دمشق ـ ٢٠١٢/٤/٤م.

٤٥ ـ مجلة العودة ـ دمشق ـ العدد ٥٥ ـ نيسان ٢٠١٢م، والعدد ٥٦ ـ أيار ٢٠١٢م.

٤٦ ـ مجلة فكر ـ العدد ـ ١٠٤ ـ الحزب السوري القومي الاجتماعي ـ بيروت ـ أيار/ حزيران ٢٠٠٩م.

٤٧ ـ مجلة الفكر السياسي ـ العدد ٤٢ ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ شتاء ٢٠١٢م.

٤٨ ـ مجلة فلسطين المسلمة ـ العدد السادس ـ دمشق ـ السنة ٣٠ ـ حزيران ـ ٢٠١٢م.

٤٩ ـ مجلة الهدف ـ الجبهة الشعبية (فلسطين) ـ دمشق ـ العدد ـ ١٤٦١ ـ تاريخ (٢٠١٣/٤/١٥م).

٥٠ ـ مجلة الهدف ـ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ دمشق ـ العدد ١٤٢٩ ـ أيلول ـ ٢٠١٠م.

٥١ ـ مصير القدس في ظل مشروع التهويد ـ د. حسين جمعة ـ مجلة جامعة دمشق للآداب

والعلوم الإنسانية ـ العدد الخاص بالقدس عاصمة الثقافة العربية لعام ٢٠٠٩م.

٥٢ ـ معارج الإبداع ـ ما لم ينشر من كتابات غسان كنفاني ـ إعداد عدنان كنفاني ـ مؤسسة فلسطين للثقافة ـ دمشق ـ ط١ ـ ٢٠٠٩م.

٥٣ ـ معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين ـ مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين ـ الكويت ـ ط١ ـ ١٩٩٥م.

٥٤ ـ المقاومة (قراءة في التاريخ والواقع والآفاق) ـ د. حسين جمعة ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٧م

٥٥ ـ مفهوم ظاهرة الإدراك ـ إبراهيم محمد علي الفقي ـ مجلة جامعة لملك سعود ـ مج٢١ ـ الآداب ـ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩م.

٥٦ ـ ملامح في الأدب المقاوم ـ فلسطين أنموذجاً ـ د. حسين جمعة ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ٢٠٠٩م.

٥٧ ـ المنظمات الصهيونية التي تسعى إلى تدمير الأقصى وبناء الهيكل المزعوم ـ سلسلة أبحاث القضية الفلسطينية ـ رقم ٩ ـ هيئة الأبحاث القومية ـ القيادة القومية ـ دمشق ـ شباط ٢٠١٢م.

٥٨ ـ من القدس إلى غزة ـ د. حسين جمعة ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ,٢٠١٠

٥٩ ـ الموسوعة الفلسطينية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٠م.

٦٠ ـ نظرية الرواية والرواية العربية ـ د. فيصل دراج ـ المركز الثقافي العربي ـ الدار البيضاء/ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٩م.

٦١ ـ ا لهولوكوست (حقيقتها والاستغلال الصهيوني لها) ـ ندى الشقيفي ـ باحث للدراسات ـ بيروت ـ ط١ ـ ٢٠٠١م.

٦٢ ـ هتلر مؤسس إسرائيل ـ هينيكيه كاردل ـ ترجمة ميشيل منير ـ دار الحمراء ـ بيروت ـ ط١ـ ٢٠٠٨م.

٦٣ ـ الوطنية في شعر حسن البحيري ـ إعداد صبري يوسف دياب ـ دار المعارف للطباعة ـ دمشق ـ ط١ ـ أيار ـ ١٩٨٥م.

من

السيرة الذاتية

أ. د حسين علي جمعة

- دكتوراه في الآداب - جامعة دمشق

١ - أستاذ الأدب القديم - قسم اللغة العربية - جامعة دمشق - منذ عام ١٩٨٣ وما يزال.

٢ - أستاذ معار إلى جامعة قطر - قسم اللغة العربية - كلية الإنسانيات ١٩٩٢ - ١٩٩٧ - قام بتدريس الأدب القديم والنقد العربي القديم - وكتب التراث.

٣ -أستاذ الدراسات العليا - الدبلوم الأدبي واللغوي - جامعة دمشق منذ ١٩٩٧ - ومايزال.

٤ - الإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراه، والمشاركة في مناقشتها في جامعة دمشق والقطر...

- المهمات الإدارية والعلمية والثقافية

١ - مدير ثانوية - : ثانوية خير الدين الزركلي - مديرية التربية في دمشق - وزارة التربية - (١/ ١/ ١٩٧٧ - ٨/ ١٠/ ١٩٨٤م).

٢ - مقرر جمعية البحوث والدراسات - اتحاد الكتاب العرب - منذ عام ٢٠٠١ حتى غاية ٢٠٠٤م.

٣ - نائب رئيس تحرير مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية - (٢٠/ ٣/ ٢٠٠٣ - ٣/ ١١/ ٢٠٠٣م) - بالمذكرة الإدارية للسيد رئيس الجامعة رقم (٢٠٤/ و) تاريخ (١٩/ ٣/ ٢٠٠٣م) والمبلغة إلى كلية الآداب برقم (١١٣٣/و) - في (٢٠/ ٣/ ٢٠٠٣م).

٤ - رئيس تحرير مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية - منذ (٤/ ١١/

٢٠٠٣م) بالمذكرة الإدارية للسيد رئيس الجامعة رقم (٩٦٥/م) تاريخ (٣/ ١١/ ٢٠٠٣م) والمبلغة لكلية الآداب برقم (٥٠٦٢/و) تاريخ (٤/ ١١/ ٢٠٠٣م) حتى (٢٠٠٩/١٢/٢٨م).

٥ ـ رئيس فرع دمشق لاتحاد الكتاب العرب ـ بالقرار رقم (٩٩٤) تاريخ (٢٣/ ٨/ ٢٠٠٣م) ـ الصادر عن السيد الدكتور رئيس اتحاد الكتاب العرب حتى تسلمه مهام رئاسة الاتحاد في ٤/ ٩/ ٢٠٠٥م.

٦ ـ رئيس اتحاد الكتاب العرب في سورية ـ ابتداء من ٤/ ٩/ ٢٠٠٥م إثر انتخابات الدورة السابعة للمؤتمر العام السابع لاتحاد الكتاب العرب المنعقد في دمشق (١/ ٩/ ٢٠٠٥م) ثم جلسة مجلس الاتحاد ممن انتخبهم المؤتمر ـ في ٣/ ٩/ ٢٠٠٥م إذ عقد المجلس جلسته لانتخاب المكتب التنفيذي ورئيسه ـ في قاعة الاجتماعات في مبنى الاتحاد بالمزة الساعة الثامنة مساء...

٧ ـ عضو اللجنة الشعبية العربية السورية لدعم الشعب الفلسطيني ومقاومة المشروع الصهيوني.

٨ ـ عضو مجلس إدارة الهيئة العامة السورية للكتاب ـ بالمرسوم التشريعي رقم (٨) لعام ٢٠٠٦م.

٩ ـ عضو مجلس الأمناء لمؤسسة القدس الدولية في سورية.

الكتب المنشورة

١ ـ الحيوان في الشعر الجاهلي (دار رسلان ـ دمشق ـ ٢٠١٠م). ط٢.

٢ ـ مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية (دار رسلان ـ دمشق ـ ٢٠١٠م). ط٢

٣ ـ الملل والنحل للشهرستاني: عرض وتعريف (دار دانية دمشق ـ ١٩٩٠م).

٤ ـ الرثاء في الجاهلية والإسلام (دار معد ـ دمشق ـ ١٩٩١م).

٥ ـ مختارات من الأدب في صدر الإسلام (جامعة دمشق ـ ١٩٩٢م).

٦ ـ قراءات في أدب العصر الأموي (جامعة دمشق ـ ١٩٩٢ ـ ١٩٩٣م).
٧ ـ قصيدة الرثاء ـ جذور وأطوار ـ دار النمير ومعد ـ دمشق ـ ١٩٩٨م).
٨ ـ في جمالية الكلمة ـ (اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٢م) ـ ط٢ ـ دار رسلان ـ دمشق ـ ٢٠١١م..
٩ ـ ابن المقفع بين حضارتين ـ طباعة المستشارية الإيرانية بدمشق ـ ٢٠٠٣م).
١٠ ـ إبداع ونقد ـ قراءة جديدة للإبداع في العصر العباسي ـ دار النمير ـ دمشق ـ ٢٠٠٣م).
١١ ـ المسبار في النقد الأدبي ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٣م ـ ط٢ ـ دار رسلان ـ دمشق ـ ٢٠١١م..
١٢ ـ نصوص من الأدب العربي المعاصر ـ بالاشتراك ـ (جامعة دمشق ـ ٢٠٠٥م).
١٣ ـ جمالية الخبر والإنشاء ـ دراسة جمالية أسلوبية ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠٠٥م ـ ط٢ ـ دار رسلان ـ دمشق ـ ٢٠١٣م.
١٤ ـ التقابل الجمالي في النص القرآني ـ دار النمير ـ دمشق ـ ط١ ـ ٢٠٠٥م.
١٥ مرايا للالتقاء والارتقاء ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ٢٠٠٥م.
١٦ ـ مشروع القومية العربية إلى أين؟ ـ دار الفرقد ـ دمشق ٢٠٠٦م.
١٧ ـ المقاومة قراءة في التاريخ والواقع والآفاق – اتحاد الكتاب العرب – دمشق – ٢٠٠٧م.
١٨ ـ اللغة العربية إرث وارتقاء حياة – اتحاد الكتاب العرب – دمشق – ٢٠٠٨م.
١٩ ـ قضايا في الفكر السياسي والقومي ـ دراسة ـ مؤسسة الشرق ـ دمشق ـ ٢٠٠٩م.
٢٠ـ ملامح في الأدب المقاوم/ فلسطين أنموذجاً ـ الهيئة العامة السورية للكتاب ـ وزارة الثقافة ـ دمشق ـ ٢٠٠٩م.
٢١ ـ من القدس إلى غزة ـ دراسة ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠١٠م.
٢٢ ـ حراس الكلمة والموقف ـ دراسة في الشخصيات ـ اتحاد الكتاب العرب ـ

دمشق ـ ٢٠١١م.

٢٣ ـ قضايا ومبدعون (دراسة في الشخصيات) ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠١٢م.

٢٤ ـ من النكبة إلى المقاومة والتجدد ـ دراسة ـ سلسلة كتاب الجيب ـ رقم ٦٣ ـ اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ـ ٢٠١٢م.

٢٥ ـ سورية (الاستهداف والمؤامرة) تكنو آرت للطباعة ـ دمشق ـ ٢٠١٢م.

الفهرس